حكاية شوق

في كفر عسكر

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٣٥٨٠

بطاقة فهرسة

الشيخ ، أحمد

حكاية شوق في كفر عسكر: روايــة/ أحمد الشيخ، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

١٦٨ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٨-٢٠٢-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

حازم الشيخ

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

أحمد الشيخ

حكاية شوق في كفر عسكر

رواية

"يدور الزمان فتطلع على سلم الحياة

ناس وتنزل ناس ودوام الحال من المحال"

شوق شلبي

كأنها صرخات الأطفال الأولى ساعة الميلاد تستعيدني وتشد عزمي بعد هدَّة الرقاد لأقوم وقد تخلصت من كل وجع، تغازلني وأنا مكوية بلسعة الفقد منكمشة على نفسي أو محنية لعاصفة الفراق فأراني واقفة أطل في البعيد قبل أن أدخل في زحمة الأحياء، أقول لنفسي وأنا راجعة وسطهم أن النار الحارقة تبردها دورة الأيام، تختلط في قلبي وأنا أسرح بفكري مشاعر الفرح الشحيح والأحزان فلا أميزها، ويتبدَّى لي أنه زمان واحد ذلك الذي فات وما هو حاصل وما سوف يجيء، تتشكل الخيالات شخوصاً أناجيها وتجاوبني دون صوت مسموع. وحيدة وأنا راجعة من سكة المدافن وإن كانت محاطة بالأحياء، أحاور الأموات وأسكت نفسي بنفسي، يتبدل ناس الكفر وتتبدل البنايات ولا تكف الشمس على الطلوع في كل صبح أو الغياب في كل مغرب، يموت الأب ويختفي الولد في اليوم المحسوب، وترحل العمَّة وقد خلَّفت في القلب مرارة من نوع جديد، ربما هي خدعة العمر فيمن وثقنا فيه وأسلمنا له قيادنا باطمئنان لا يجوز، وماذا أخذت منها غير الوعود ثم

الوعود وقد فرَّت الآن مني وما عادت تعود لأعاتبها على فعلتها، وكيف ألم حكاياتي معها في جعبة وأسك عليها فلا أرويها إلا لنفسي، تكويني وأتوجع وحدي وأتحاشى نظرة الشامتين ؟

هل كنا في القاعة بالأمس ليلاً وعلَّام يخبط كفا بكف منكرا ومحرضا لي وأمي تجلس مشدودة الرأس بطرحتها ومسنودة به على كفها، غفلانة وعلَّام يسأل :

– تبقى اتلحست في نافوخها بصحيح.. زعتر المواوي يا حاج ؟

والحاج مرسي حائر متردد قبل أن يرد :

– الولد ده ح يشفط الحليبة والرايبة، خايف تطلعي من مولد عمّتك بلا حمص يا شوق يا بنتي.

كان وجه علَّام الغاضب يتابعني بقلق، وكانت رأس أمي تميل علامة الاستغراق في النوم أو التظاهر به، وكنت أحسب أن مفتاح الحل معي، وأنني أقدر على إعادتها ببضع عبارات إلى مركزها في عقول الناس، ربما أفلح في إقناعها بالخلاص من زعتر والعصمة في يدها مثل كل المرَّات فلا مستحيل، وضعت على الرأس غطاءه فارتاحوا، ربما اطمأنوا بعض الشيء لأنني قررت الذهاب بعد الرفض مرارا، كنت أرتب الكلام في عقلي وأنا أتحسس بأطراف أصابع القدمين فتحتي المداس المحطوط في "بحراية" القاعة :

– اللي زي دي يتحجر عليها ياسي الحاج، مش كده ؟ دي عدت الثمانين.

سمعت صوت علَّام يقولها وأنا أخرج من باب الدار وأتوجه إلى دار العمَّة لأرى العجب، امرأة سمينة قاعدة طولها أقصر من عرضها وقد غاب عنها عقلها الموزون الذي كان قادرا على تسيير عائلة بحسب إرادتها رغم الشوارب والشهادات والأملاك، دكاكين وجرارات وطواحين وعربات نقل وركوب، وكان زعتر ابن العبد المواوي يجلس إلى جوارها وقد خلع ثياب الأنفار ولبس الكشمير فبدا مثل عود القصب الممصوص، ابن العبد الهارب من خدمة الجيش أيام الحرب الذي تستَّرت هي عليه أيامها باعتباره خادمها الذي يقضي لها الحاجات، كانت تبربش بعينيها لتتحقَّق مني والولد يضاحكها وتمتد يداه المتشققتان إلى لحم أطرافها دون حياء في وجودي وكأنه ينكرني :

– بنت أخوكي وصلت ياست الكل .

– بالسلامة .. بقى ما تحضريش كتب كتابي يا غالية يا بنت الغالي ؟

قالت هي بسخرية مستفزة قبل أن تنطلق وينطلق بعدها في ضحكة ممطوطة أخجلتني وجعلتني أندم لأنني جئت بوهم أنني سألتقي بنفس العمَّة التي عرفتها عمري والتي كانت في كل شيء تختلف عن تلك الكتلة من الشحم واللحم التي تتضاحك بشكل منفّر وكأنها جنّيّة طالعة من تحت سابع أرض لبست ثوبها وجلست مكانها، وللمرة الثانية في حياتي خفت منها فاستدرت خارجة ولم أجرؤ على الإطلال إليها أكثر أو سماع ما كانت تقوله وهي تشيّعني بالكلام وتضحك مع الولد زعتر المواوي.

في الليل فاتحني علَّام في ضرورة الحجر عليها وكيف أن المحامي أوصاهم بأن تكون قضية الحجر باسمي، أعاد على مسامعي أن كل ما تملكه العمَّة من حقي وهو ليس بالقليل لأسكت كل هذا الوقت، وافقته على الذهاب في الصباح لعمل ما يلزم، وبدا لي أنني لم أنعس كثيرا قبل أن أسمع صوت زاهية يندبها قبل الضحى، وعندما ذهبت إلى دارها أفسحوا لي الطريق لأراها على "درّابة" الغُسل راقدة، وبدا لي أنها انكمشت كثيرا وتخلصت من كتل الشحم واللحم الزائدة، وأن تجاعيد وجهها اختفت وبدت لي كما كانت في السابق وأحببتها عمري، كفَّنوها ورشوا على بدنها الساكن زجاجات العطر "وبعبعوا" بكل ما يمكن أن يقال عن زعتر الذي كنس كل ما كانت تملكه وتحوطه وتحميه لصاحب النصيب الذي حرمني في آخر أيامها من حقي وأنا وريثتها الوحيدة الباقية، وفي عصر نفس اليوم دفنوها في قبرها الذي ابتنته لنفسها وأوصت في حياتها بألا يشاركها فيه قريب أو غريب ولا ينفتح بابه أبداً ليوم الدين .

***

كانت سيرته تنفتح في أمسيات المواسم والأعياد فينقلب ميزان الدار، تتوارى الضحكات وتتخفَّى ويعشش الصمت الحزين، كنا نميل لتصديق أنه جاء إلى الدنيا قبلنا ورحل عنها دون أن نراه رغم الوساوس التي كان يزرعها في عقولنا شيطان كافر بأنه ما كان ولا صار أبدا، لعلنا كنا نحتاجه مثلها وأكثر، ننسى شكوكنا ونتحدث عنه للبنات في مثل أعمارنا وكأنه حقيقة

فنتعرض للتكذيبات والسخريات، كنا نتخيله شابًا في مثل عمر البكري وإن كان أكثر منه جمالا وأخف ظلا، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سوف نلقاه في مستقبل الأيام .

اعتدنا أن يدخل أبي في تلك الأمسيات متأخرا على غير عادته، وقد تغيّرت ملامحه، لا ينظر إلى أي واحدة منا أو يلاغينا، غاضب على الدار والدكان وناس الكفر، القريب منهم قبل الغريب، يجلس في ركن القاعة ويصب اللعنات، يسود الحذر والقلق وتكتفي هي بالنظر إليه حتى يستغفر ويزفر ثم يتنهد، تدور بنظراتها في الأركان، وتنحط على وجوهنا وكأنها تستشيره فيهز رأسه بالايجاب تقوم وتدحرج الطبلية، تحطها في منتصف القاعة وتسبق البنات إلى صحن الدار، أسمع أصوات الملاعق والأطباق وخبطات المغرفة في قيعان الحلل، تمتلىء صينية العشاء النحاسية ونلتف حولها، تدعوه للبدء بنظرة وهمسة :

– لاجل خاطر البنات .

يظل رأسه مائلا حتى تلامس حلمة أذنه اليسرى ثوبه من فوق الكتف، يبقى فترة على تلك الحال، غارقا في التفكير ودخان العشاء يتصاعد، لا تمتد يد أي واحدة منا ونقاوم الرغبات، ويكرر عبارته التي سمعناها بنفس الايقاع في مساء الموسم الفائت :

– لو كان الولد ده عاش ما كنتش راسنا ميّلت لحد .

كان الحزن يشملها والعجز يحوطها وإن جرؤت تقول بحسرة :

– ياكبدي .

تقولها وهي تبتعد مسافة عن طبلية العشاء وتقول أن نفسها "مصدودة" عن زاد الدنيا، نتبادل النظرات وتقوم البنات لحمل الأطباق حتى تخلو طبلية العشاء، تزيحها وترفع قوائمها لتسندها مكانها جنب الجدار، نتكوَّم في الأركان ونكتم الأنفاس، ربما نسمع عواء كلب غريب ويستعيذ هو بالله من الشيطان، ربما نراها وهي تطرد براحتيها الشر "بعيد عنا .. بعيد" ربما يتباعد صوت العواء بعد مدة تطول أو تقصر لكنها تخّلف في نفوسنا رهبة، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لي أنه خبا وقد عادت هي من الخارج وجلست على طرف السرير محلولة الشعر ورأسها مسنود على راحتيها المفرودتين المرتكزتين على الركبتين :

– ابن عمي وشمتان فينا يا أم البنات .

يقولها أبي بصوته المنكسر وعيناه سارحتان في الفراغ البعيد، لا ترفع هي الرأس أو تحركها، تثبت على حالها، ملمومة على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسنودا على قوائم السرير، يئز الحديد بينما يتمدَّد هو بينها وبين الجدار، يحادث نفسه متشكّيا :

– زي ما أكون مش قادر أصلب طولي .

تقوم هي وتغطيه، ترمي علينا حرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب إلينا الهواء الرطب أولا ثم نستشعر الدفء ببطء، يشحب ضوء المصباح تماما

أو يسيطر الظلام، ورغم صحونا جميعا لا يوجهان إلينا أي حديث، يتبادلان الكلام همسا مسموعا ربما بنفس البدايات والنهايات التي سمعناها قليلا :

– يعني لو كان عاش كانت الدنيا ح تنهد ؟

– نصيب .

– نصيب أغير .. ما لحقناش نفرح بيه .

– قادر يعوض عليك .

– ياريت .. لجل خاطر الولايا دول .

كانت البنت عطيات تتحرَّك تحت الحرام، وأحيانًا كانت تحاورني بصوت خافت فلا أسمع المزيد، يعلو صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها نعمات بالسكوت وأن تنام، وإن أطاعت يسود صمت أو نسمع أصوات العابرين في الدرب أو نقيق ضفدع في المصرف القديم، تلبد البنت في حضني كأنها تهرب من جنّي يطاردها، أشعر بيتمى ويتمها رغم وجود الأب والأم، أسمع صوت نعمات وهي تتنفس بعمق، وربما تتحسَّس شعري المحلول أو أتحسَّس شعرها بينما تغرق جواهر في نوم حقيقي ويصدر عنها شخير خافت لا يكف، أشعر على نحو غامض أن جرحنا غويط وربما لا يطيب، وأن النار التي تكويها قد لا تنطفيء أبدا، ويبدو لي أنني أعاود السماع لكلام سمعناه مرارا :

– كان ابن موت، ابص له يضحكلي، فيه في الدنيا عيّل ابن يومين يعرف أبوه ؟

– اللي تحت الأرض خبطوه، كان يا ضنايا مطرح الكف في ضهره بالخمس صوابع معلمين .

– وعنيه مفنجله وصاحيه .

– ربنا ح يعوّض عليك .

– فكرك ؟

– شد حيلك ولا تزهقش روحك بس .

– أما نشوف آخرتها .

يقول ويزفر، يستغفر في حرارة ويغمغم في قوة، وربما أصحو على صوته ينهج في استسلام وتراخ، يسألها في همس إن كانت غطّتنا جيدا فتطالبه بألا ينشغل بأمرنا، أسمعها تواسيه ويواسيها ويحلمان معا بولد آخر يجيء، أسمع ضحكاتها الخافته التي تتوارى وتتخفَّى ووصاياه لها بالحرص والسكون، ربما أصحو على صوته المسموع :

– العيال رقدت من غير عشا .

فأشعر بها تنزل عن السرير، تتحسس بقدميهنا أرضية القاعة حتى لا تدوس إحدانا، تعالج المصباح فيبعث ضوءه من خلال فتحات الحرام القديم، تخرج هي ونسمع نحنحاته ونداءاته المتكررة علينا بالاسم، نتناوم إلا عطيات التي تقوم، تصعد إلى السرير فيضاحكها ويأمرها بأن توقظنا :

– دي ليلة مفترجة يا عيال .. قوموا سخَّنوا الأكل .

تقوم نعمات، تلملم خصلات شعرها الناعم وتربطه بالمنديل وتزغد جواهر التي تقوم مفزوعة تدعك عينيها وترجوها أن تتركها لتنام، لكنها في كل الحالات تقوم، تخرج الواحدة في إثر أختها، وقد تدخل أمي إلى القاعة وقد تلف نفسها بالحرام طلبا للدفء الذي خلَّفناه، وفي صحن الدار كانت البنات يتبادلن الأحاديث حول نفس الموضوع :

– طيب كان اسمه ايه الولد ده ؟

– يا بت دا مات قبل السبوع بيومين ما كانوش سمُوه .

– طيب اندفن فين ؟

– اندفن مطرح ما اندفن .

– إغرفي يا ختي وبطَّلي قلة أدب .

تنفلت الضحكات منا غصبا وقد يسمعان، ربما يستفسر هو أو هي عن الأسباب دون اعتراض وربما يتضاحكان ومن جديد تنحط الطبلية في وسط القاعة ومن فوقها الأطباق، تعدل له المسند ويجلس وسطنا، يلاعبنا ويسلينا ويحدثنا عن فرحته بخلفتنا، يقسّم علينا لحم الطيور ويناولها نصيبا، تأخذ منه ما يكفيها وتضع الباقي فوق نصيبه فلا يعترض، يأكل بشهية فتنفتح نفوسنا ونأكل وهو يحكي وتسايره:

– المرسى جاني قبل المغرب بساعة، قعد على باب الدكان ما تعرفيش كان طمعان ف ايه ؟

– هو الراجل ده ما بيشبعش ؟

– ما سألتش فيه. سرح بعيد ورجع، وقف قصادي قال اللي قلت لك عليه.

– ينقطع لسانه .

– كان عامل انه بيضحك وهو قاصد يقهرني .

– ينقهر على أغلى ما عنده .

– قال مين ح يرضى ياخد واحدة من بناتي قال .. ومين يطول ؟ وإيه يعني ماهمش أخ يترد عليه ؟

– حس أبوهم في الدنيا .

– أنا قلت له أخرس ياخنزير، سمعها وما ردش .

– بناتك ألف مين يتمناهم .

– دانى عندي الواحدة منهم بألف راجل .

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرات مباهية وراضية وربما حالمة بخلفة جديدة من الأولاد، ربما ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وربما تتزايد الأشواق، لكن الصحو يزداد في العيون ويمتد الوقت بنا وتتشعَّب الحكايات بعيدا بعيدا عن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزونا في نعومة، وربما نسمع آذان الفجر من زاوية أولاد عوف، وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار .

***

– ما حدش بيموت ناقص عمر يا سعاد .

قلتها للبنت رغبة في تخفيف حزنها على سيد فأطلّت ناحيتي بغضب، قامت من قعدتها، علّها خافت أن تلومني على قدرتي على الاحتمال، لو دخلت هي قلبي لعرفت إلى أي حد اكتويت بناره، هو قطعة مني، حملته في بطني وشفت فيه المرار قبل مولده وبعده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرموني منه قبل الأوان بألف أوان، سلَّمت أمري لله ولهم وظلَّ طيفه طوال العمر يشاغلني من بعيد، كنت أراه في وجوه من رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتي عليه وأحرم لساني من مجرد ذكر اسمه، أقول لنفسي ما قيمة الحديث عنه وقد كنت في كل مرَّة أرى نظرات الاستنكار والملامة، في أول الأمر كنت عندما أفكر فيه أو أشتاق إليه أبوح بالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتي مع حسن، أشعر بالغيظ لأنه من الصعب علي أن أنساه أو أن أصدق ما يقال إنه لابد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عوّدت نفسي أن أكتم أشواقي لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جرحي الغويط مدفونا في أحشائي، أناجي نفسي وأتخيله، أبتسم إن سمعت عنه كلمة ولا أظهر لهفتي عليه أمامهم لكنه كان ولدي، لحمي ودمي وجرح عمري .

– مش مصدقة نفسي .

قالتها سعاد وهي تقترب، في عينيها سؤال تخجل أن تواجهني به، استبعدت أن تكون عاجزة عن فهم مشاعري وهي بنت المدارس التي تعلَّمت والتي كنت في الأيام الأخيرة أبثّها أسراري وأشركها في همّي، همّي

القديم الذي تجدّد وتجسّد في ميّت أكّدوا أنه لا يخصنا في شيء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزيتي فيه بأكثر من الكلام العابر، كان العزاء هناك في الناحية الأخرى، في دار عبدالقادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفر كما يقولون ذاهلا عن نفسه يتمتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجرّدني من حقي في مشاركته الصراخ أو الإعلان عن فجيعتي فيه، كانت النظرات التي تنصب عليّ وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتني، تكويني بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ شاب جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدا عنها وما نساها أو نسيته، على الوجه المغدور بسمة، والملامح السمراء حازمة تتطلع بأمل في مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقه، هل كنت قد قرأت في آخر زيارة له حزنه على شبابه الضائع قبل الأوان بلا ثمن ؟ وهل حدثتك ياسيد عن خوفي عليك من ناس الكفر مرة ؟ وهل ركبني كابوس رأيتك فيه تسقط بضربة غادرة ؟ ليتني أكون قد بحت لك بهواجس عذّبتني، وليتني أستطيع الآن أن أبوح لسعاد بضعفي وعجزي ووجعي الذي يتخفّى ويتوارى، يداريني خلف عبارات عن النصيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه وأسمع منهم في المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة :

– عاقلة .

ليتني أملك الحق في جنون مثل جنونه، فهاهو يأخذه مني ميتا كما أخذه في السابق طفلا حيا يتلوى من قسوة الانتزاع وأنت الآن حُر في أن تعلن للكل

أنه ابنك وحدك . ساكن المدافن الحي باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزني أو دخلت معه السباق الخاسر، ومن يصدقني إن فعلت ووصفت له قسوة النار التي تسكنني ولا أمل في إنطفائها بآلاف الصرخات، حتى لو تحوّل ما تبقى من العمر إلى زعقة وحيدة محدودة أندب فيها أول خلفتي وأول فرحتي، أول من حملته في بطني وأول من أحياني بعد موات لحظة أن سمعت صرخة مولده في القاعة، ولمن أحكي يا سعاد إن لم تسمعيني وتغفري لي ذنبي إن كان طول احتمال فراقه ذنبا أستحق عليه الغفران، وإن لم تفهميني أنت وأنت امتدادي فمن يفهمني من الغرباء ؟.

***

وكان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبي يجمع أولاده وأولاد أولاده في صحن داره البراح التي بناها على السكة الزراعية خارج زمام المباني في مكان زريبة جعفر البيَّاع تلك التي اشتراها منه مع الفدَّانين، يجمعهم بليل في الأمسيات المقمرة الساكتة ويحدّثهم عن جدنا الملك الشّلبي :

– كان جدكم الملك الشّلبي فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالي سلامة بألفين سنة وأكتر، حكم الدنيا المسكونة في زمانه ميتين سنه وخمسه، اتجوز حريم كتير وخلف عيال كتير، وخلفته أكترها كان صبيان، كانت الجاريه من عبيده اللي تخلّف ولد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير عليها ملك، واللي كانت تخلّف بنت تفضل معاه في الحريم لحد ما يجيلها يوم وتولد ولد، حريم كتير كانت على ذمته وما

خلفوش صبيان، جوزهم للعبيد، عبيده كانت كتير يسدوا عين الشمس، لكن العبيد مالهاش أمان، زيهم زي الجواري اللي بلا خلفه، ويوم ما مات الملك الشّلبي هاج العبيد والجواري حريم العبيد، حاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانه ونشروا الفساد في الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك بلاد، وطلّعوا بالكدب ع الملك الشّلبي كلام مالوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولي نعمتهم عبد مجلوب زيهم ومالوش وطن ولا أصل، وقالوا عنه راعي غنم والزمان عطاه، وقالوا قاطع طريق وحرامي، وقالوا وقالوا وتاهت الحكايات وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشّلبي والعبيد، كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد مماليك من نسل الملوك وباعوهم في سوق العبيد، خلق منهم هربت ف بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبي، وفين ما تروح في بلاد الدنيا الواسعة تلاقي فرع باقي من سلسال الملك الشّلبي، حتى لو غيروا أساميهم خوف من ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كده، وعيونهم تشبه عينين فطوم، مكان ما تروح ح تلاقيهم، تعرفهم ويعرفوك، بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن".

كان يراني فيقوم من فوق كرسيه المرتفع، يقترب مني ويحملني بقبضتيه إلى صدره، يحضنني بحنو ويربت على ظهري، يبتسم لي في ود ومحبة وربما يجلسني فوق ركبتيه فأتطلع إلى الخضرة في عينيه، وقبل أن يعديني إلى أبي يدس في كفي قطعة من قمع سكر أو قالب مستطيل ناعم الملمس، كنت

أحتفظ بتلك القوالب أو قطع السكر حتى تنتهي السهرة ويكف هو عن الحكي عما كان، وكان أبي بنتبه لذلك دائما في مشوار عودتنا فيطلب مني الإسراع بأكل قطعة السكر، كنت أقطع حوافها بأطراف أسناني قطعة صغيرة في إثر قطعة، استطعم حلاوتها على مهل دون رغبة في الخلاص منها على عكس إرادة أبي الذي يكون راغبا في إنهائها في أسرع وقت، كان يزغدني برفق ويتعجلني :

– يا بت ابلعيها بقى، السكر ما هو مرمي في البيت وفي الدكان .

وعلى غير إرادة مني كنت أستجيب وأطحن قطعة السكر بين أسناني طحنا هيّنا، أتسمع برطماته بعد "القرقشة" على عادته في كل مرة وهو يتّهم الجد هارون بالشطارة في الكلام الفارغ الذي لا ينفع ولا يشفع، كنت لا أرتاح إلى تلك الجسارة في التطاول على الرجل الطيب ولا أعرف كيف أدافع عنه، وكنت في كل مرة أرغب في سؤاله كيف إستطاع أن يكره ذلك الوجه الصبوح الباسم ذا العينين الخضراوين بزرقة واللتين تشبهان إلى حد كبير عيني عمتي فطوم .

– اللي زيه ماوراهش حاجة يخاف عليها، إنما احنا متعلقين من عرقوبنا .

كان يحدثني عن رأسماله الذي يتوزَّع في ذمم خلق الله، وعن ديونه لناس غيرهم وكيف أن التاجر الناصح لا يحق له أن يعادي أحدا، حتى خصومه لا يجوز له أن يعاديهم علنا، يسايرهم ويكسب منهم ويبشَّ في وجوههم، كنت لا أشغل نفسي كثيرا بكلامه ونحن نقطع الطريق في ضوء القمر ناحية الدار،

وكانت كلمات الجد هارون تطنُّ في أذنيّ ويتردّد صداها، أستعيدها وأرغب في ترديدها لنفسي، لكن صوت أبي كان يعلو كلما ابتعدنا عن دار الجد أكثر حتى ليوشك صوته أن يكون صراخا في فراغ الحقول :

– مش ح يهمد غير لما يشعلل في الكفر نار .. الخوف يسقط مننا نفر ولا نفرين، دا عايزنا ننطح دماغنا في الحيط يا شوق .

كان يسرع خطوه المتمهل ويعلو صوته أكثر فأسرع في أعقابه حتى يبلّلني العرق وأستعيد وجه الجد هارون الذي كنت أحبه أكثر من أي واحد من أولاد شلبي حتى تلك الظهيرة التي جرَّسوا فيها جعفر البيَّاع ورحت أتفرج وسط الأولاد والبنات.

كان جعفر يركب الحمار بالمقلوب، وجهه ملطخ بالدقيق "العلامة" وعلى الرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه إلى أسفل الذقن بخرقة بالية، كنت أردد معهم ما كان يحدي به حسنين المدندش والطبلة تحت إبطه تجلجل مع صوته، يحدو ونرد عليه :

جعفر بـــاع غيطه	يـا عيـب الشـوم
واتهـــدم حيـــطه	يـا عيـب الشـوم
جعفر بـــاع داره	يـا عيـب الشـوم
ونقـص مقـداره	يـا عيـب الشـوم
ولا عادش يساوي	يـا عيـب الشـوم
ديل جحش حصاوي	يـا عيـب الشـوم

وجدته واقفا، كأنه جنيّ طالع في عز الظهر، عيناه الخضراوان بزرقة لا تحملان ودا والوجه عابس، ولأول مرة في حياتي خفت منه، ذابت من ذاكرتي حلاوة كل قطع السكر التي كان يمنحني إياها، فكّرت في الفرار منه لكنه أمسكني من معصمي بقسوة وجرجرني بعيدا عن الأولاد بشدة دون أن ينطق، تباعدت زفة حسنين المدندش وحزنت لحرماني من الفرجة على جرسة جعفر البيَّاع، جرجرني بعنف لم أجربه قبلا ولم أتوقعه منه أبدا حتى وصل بي إلى بنايات "الواطية" ثم دفعني دفعا لأدخل من باب دارنا الموارب. كنت أبكي بحرقة من أثر مسكته لمعصمي، وكان أبي يجلس على جذع النخلة المركون في صحن الدار، كان يطل إلينا ولا يعترض، بل أن الجد هارون راح يوبّخ أبي ويسبّه ولا يرد، يطل فقط، ولابد أنه كان يسمع أيضا ويوافق على ما كان يقوله الجد بأن تجريس جعفر البيَّاع فضيحة لكل أولاد شلبي فالرجل لم يقتل أو يسرق أو يخرج من دين محمد، ولأن أولاد عوف يقصدونه شخصيا بهذه الجرسة فسوف يدعو أولاده وأولاد أولاده لتخليص جعفر من هؤلاء الظلمة من أهل العمدة ومن يتصدرون لحماية العمدة :

– لهم حق يتفرعنوا عليكم . مش لاقيين حد يردّهم .

كان أبي على حاله، يسمع ولا يرد على الجد هارون :

– واحد وباع أرضه وداره،. لهم في كده إيه هما عايزين يسيّروا الدنيا على هواهم ؟.

كانت يده المرتعشة قد انفكت عن معصمي فأسرعت أمي لتسحبني في المكان وكأنها تهرّبني من عقاب لابد يحل بي إذا بقيت في المكان، غسلت

وجهي وجبهتي وأنفي ورطَّبت أطرافي بماء الزير البارد وأمرتني بالشرب لترطيب جوفي أيضا ففعلت، أخذتني إلى القاعة وراحت تسرّح شعري، كنت أسمع صوت الجد هارون وهو يحذر أبي من أن أعاود مشاركة الأولاد في جرسة جعفر البيَّاع :

– إن شفتها بترمح ورا حسنين المدندش يا عبد الستار ح يكون بحش أجلها .

قالها ولم أسمع عليه رداً، وساد صمت ثم ارتطم باب الدار الكبير، لابد بيد الجد هارون وهو خارج منها، كنت أتسمع صوت حسنين المدندش وقد وصل إلى درب المغربي يحدو :

أهي خيبة وحطت يـــا عيـب الشـــوم
ناس عالية ووطيت يـــا عيـب الشـــوم
ناس واطية وعليت يـــا عيـب الشـــوم
ناس خالية وملكت يـــا عيـب الشـــوم
ناس مالكة وخليت يـــا عيـب الشـــوم

وفي الليل حدثتني نعمات عن خروج جعفر البيَّاع من الكفر بعد أن ربطه العمدة في النخلة أمام دوَّاره وضربه بالكرباج، وأن العمدة طلب عبدالقادر في دوَّاره لتدبير عراك مع أولاد الجد هارون وأن أبي خائف على تجارته إذا تجدد العراك وأن البلد مقلوبة وأن الجد هارون كتب في العمدة بلاغا، شعرت بالخوف وخفَّت غضبتي من الجد هارون وتمنيت لو كنا أولادا وشاركناهم في العراك، ضحكت مني نعمات وأخذتني في حضنها ونمنا لنصحو على

أصوات الرجال في المندرة يطالبون أبي بالدفع أكثر ما دام لن يشارك في العراك وأبي يطلب من الجد هارون الرحمة والعدل والبعد عن الشر :

– ولا كان له لزمه ده كله يابا هارون، هو أنت عامل نفسك مغسّل وضامن جنه لجعفر كمان ؟

فيرد عليه الجد هارون بصوته الغليظ آمرا بحسم :

– إن ما كانش ح يبقى لنا عزوه في الكفر ده وهيبه تبقى أنت أول الخسرانين، رسمالك وشرف بناتك، ح تدفع يا عبد الستار ولا مالناش دعوة بيك من بعد النهارده ؟

كان يتحرك في أركان المندرة مثل فأر دخل مصيدة فلا هو قادر على الخروج منها ولا مطمئن للبقاء فيها، توجه ناحية دولاب الحائط، فتحه وهو محاصر بنظراتهم، أخرج أوراقا حمراء، عدَّ منها لا أدري كم وناولها للجد هارون، لا أذكر ما قاله وهو خارج ومن خلفه رجال العائلة لكن الذي رأيته هو جلوس أبي على طرف الكنبة مطرقا برأسه حزينا بحق، لم يلتفت إلينا ونحن إلى جواره أنا وعطيات إلا بعد فترة طالت، لحظتها اجتذبنا إليه في حنو وحدَّث نفسه :

– لو ما كنتوش بنات.

شعرت على نحو غامض أننا سبب انهزامه وخسارته وأن لولانا ما أطاع أمر أو انكسر .

***

قلت له ياسيد أولاد عوف كانوا زمان، أولاد عوف راحت أيامهم، أنت تنفخ في قربة مقطوعة، قلت له كن في حالك يا سيد، مالك أنت بأولاد عوف ؟ بماذا أفادوك لتزرع روحك فيهم وقد عشت وحيدا ومقطوعا وما سعى أحدهم للاقتراب منك لتطمئن أن لك في الدنيا أهل وناس، أعرف ما كان بينه وبينهم، وأنا لا أقلّب بكلامي مواجعك القديمة، أنت لا تعرف ما جرى منهم في الزمن القديم، كل ما تعرفه هو تلك الحكايات التي لابدَّ أنه حكاها لك على امتداد العمر، لكنها ليست كل الحقيقة، بينها وبين الحقيقة مسافات ومسافات بطول المسافة بين الكفر وتلك البلاد التي عاش فيها وبطول السنوات التي غاب فيها عن الكفر وناسه، يعرف حقيقة الكفر من عاش فيه ياسيد، ويعرف أولاد عوف من تعامل معهم أكثر، لقد عاركناهم وصالحناهم، بعنا لهم واشترينا منهم، دخلنا بيوتهم ودخلوا بيوتنا، عرفنا طباعهم وحفظناهم في عقولنا، وإذا كان هو أول من جرؤ "وناسب" أهلي وفشل، فقد تكرّر الأمر من بعده، صاهرناهم، وصاهرونا، وطلع نسل جديد تجري في عروقه دماء الشلبي والعوف، وإذا شئت أحكي لك عنهم لتعرفهم أكثر، ولكن الخلاصة هي أن في البعد عنهم غنيمة، والبعد عن مشاكلهم التي لا تنتهي وإن تزايدت، راحة البال، دبّر وقتك وعقلك وشوف مصالحك، مالك أنت ياسيد بمندرتهم الكبيرة التي خربت؟ مالك بدوارهم المهجورة وهل تصدق ما يقال من أن لهم في الناحية ميراثاً موقوفاً ينفك بأوراق مزعومة فشلوا في العثور عليها طوال تلك السنوات، وكأنما

أخفاها عنهم جن في سابع أرض؟ وهل تخصك مدافنهم في شيء ياسيد؟ حتى لو أفلحت في تجميعهم حولك وقاموا بتجديد الدوَّار وترميم المدافن والمندرة فلن ينتهي المشوار لأنهم لن يستعيدوا ما أخذته منهم الأيام في غفلة من كبارهم قبل صغارهم، أنت لا تعرف ياسيد أنهم لو لجأوا إليك لتحل نزاعا بين نفرين منهم فإنك لن تستطيع أن تحل أو تربط ليس لأنك سوف تعجز وإنما لأنك بالنسبة لهم أفندى غريب برغم الاسم المشترك وقد تعجب من كلامي لكنك سوف تتأكد، أنت في نهاية الأمر ابن حسن الذي خرج من الكفر ودار في البلاد البعيدة، وكم تندَّروا على غربته في مجالسهم، قالوا إنه باع الأرض والكفر والابن والدار فباعته الأرض ولفظته الدار ونساه الابن وكل أهل الكفر، صدقني ياسيد أنت محسوب على حسن على عكس صالح، صالح منهم لأنه عاش بينهم، شافوه طفلاً وصبياً ينمو واطمأنوا له برغم خلافاته التي لا تنتهي معهم، وفي الكفر يقولون "اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش، ياسيد" وأنا بكلامي لا أمنعك عنهم فهم أهلك، لا أطلب منك أن تقاطعهم أو أن تبتعد عنهم تماماً لأنهم دمك واسمك وأصلك، كل ما أوصيك به أن تدخل بينهم ولا تحلم بأن تكون في مقدمتهم ولأنك ابني على القرب والبعد أتمنى لك أن تكون فوق الكل، سيدهم وآمرهم الذي يطاع، لكن الناس هنا لا تسلم قيادها لأي وافد حتى وإن بدا لهم أنه أبرع منهم وأكفأ، وأنت بحساباتهم وافد جديد، يقابلونه بالترحاب والأشواق ويكتمون الحذر والتوجس، والأمر في أوله وآخره يخوَّف، العين في الكفر

تنحطُّ على من يتصدَّر، وأنت لا تعرف معنى أن تنحطّ العين على بني آدم في كفر عسكر، نشف ريقي، وشعرت بمرارة الحلق من كثرة الكلام وهو ساكت يتسمّع كأنني كنت أؤذن في مالطة :

– عارف كل ده .

– وسايبني أهاتي ياسيد ؟ الغرض، ما دام عارف يبقى ما تغوَّطش في بحورهم اللي مالهاش قرار، دول ناس لهم عدوين كتار في الكفر وفي كل الناحية .

– ولا يهمك .

قالها باستهانة فقلت لنفسي إن العرق يمد لسابع جد، وأن دماغه لايختلف كثيرا عن أدمغتهم رغم المدارس والشهادات التي لم يتعلم منها كيف يكون واعيا لنفسه وعي الفلاح الناصح الذي يحسب لكل خطوة يخطوها ألف حساب، لم يرث عنهم غير عرق الاستهانة الدسَّاس، ليته كان مثل صالح الذي يحتاط لنفسه أيام المخاطر وهو يمشي في دروب الكفر. أو في سكة البندر، الخلق في المدن لهم عقول غير عقول الخلق في كفرنا، لو عاش هنا لرأى الفئوس وهي تغدر والعصيّ وهي تضرب في عز الظهر الأحمر لأتفه الأسباب، لو عاش هنا لعمل حسابا للمتربصين في الزراعات يطلقون الأعيرة تخويفا وإرهابا وأحيانا في المليان تصفية لحسابات قديمة من عمر الأجداد، ماذا أملك إلا أن أوعيه وأحذره ؟ أصبر عليه وأفهمه ما لم يفهمه:

– صالح ما قالكش ع اللي طلعوا له متلتمين في نقحة القيالة ؟.

– قال .

– ما سمعتش على جدار مصطفى عوف اللي نقبوه وخدوا منه البهايم ولا حدش طالهم ؟.

– سمعت .

– وابن السعيد عوف اللي انخطف وانقتل واندفن في أرض السعيد عوف نفسه ؟.

– وإيه تاني ؟

– السعيد عوف ده ما كانش منهم، كافي خيره شره ولا عليه تار لحد ولا حد معاديه .

هز رأسه وبدا لي وكأنه لم ينشغل مجرد انشغال في التفكير في دلالة تلك الحكايات، فكرت أنني خلصت من ذنبه لكنني كنت مازلت أخاف عليه من مخاطر الكفر والناس وأولاد عوف، ومن جديد قلت أحاول معه :

– مش عاجبك الكلام ياسيد ؟ أنا قلبي عليك .

– يعني عايزاني أخاف ؟ أنا بقى ما بخافش .

– المثل بيقول من خاف سلم .

– كلام فارغ .

– كلام فارغ ياسيد، صحيح العرق دساس، دا أنت زيك زيه بقى، غشيم زيه وبتنطح راسك في الحيط .

قلتها فبان في عينيه الشر فجأة، كشَّر عن وجهه وتغيَّرت الملامح، من داخلي خفت، نسيت أن الواقف أمامي وقد احتقن وجهه وارتعشت شفتاه هو طفلي القديم الذي حسبت أنني استعدته شابا سمح الملامح، كان يشبه الآخر ساعة الغضب لكنني تماسكت وقلت بغير اهتمام :

– ما تضرب لك قلمين .

هاج أكثر وتحرك في دائرة ضيقة حول نفسه بلا هدف، شبَّك أصابع يديه بعنف وفكَّها بعنف واستدار مبتعدا عني في غلٍ مكتوم، تابعت قدميه القلقتين المرتبكتين المترددتين بين الرغبة في الخروج من باب الدار الموارب والبقاء فيها ليصفي حسابه معي، قلت أغيظه أكثر :

– هربت يابن حسن ؟

استدار في عنف وواجهني، كانت العينان الملتهبتان تلمعان بشراسة وحش من وحوش البراري سقط في فخ، سألت نفسي إن كان من الممكن أن ينسى، وهو في لحظة اندفاعه أنني أمه التي حملته في بطنها فيغلط معي بالقول أو بالفعل، خفت إن هو فعل أن يضحك عليه الخلق في طول الكفر وعرضه لو سمعوا أنه وهو الأفندي المتعلم لم يراع الأصول ولا شرع الرب في أمه، ساعتها تكتمل خسارتي له ويخسر نفسه، كان يصب عليّ نظرة الغضب وكان يغيظني أنها دفاع عن حسن، كأنهما رجلان في مواجهة إمرأة .. لكن التردد غلبه وخفَّت حدَّة التحفز، لعله عاد إلى عقله فصعب عليَّ حاله، ابتسمت له ثم ضحكت بصوت مسموع فتلفَّت حول نفسه باحثاً عن أسباب ضحكي،

وعندما لم يكتشف شيئاً غريباً تحوَّل الأمر إلى مجرد دهشة، قلت وكأنني "أدادي" طفلاً عنيداً بحنان الأم :

– أقعد ياسيد، واقف كده ليه ؟

حيَّره أن أتحدث إليه بود وتسامح، لعله نسى استفزازي له واستعد للتصافي فكرَّرت بنفس الصوت :

– واقف لي زي خيال المآته كده ليه ؟ هو حصل إيه لده كله ؟

تراجع خطوتين وجلس على الدكة، زفر ثم تنهَّد، نظر ناحيتي وأوشك أن يسألني أو يعاتبني ثم تراجع، شعرت بالفرحة به والانتصار عليه فقلت بثقة :

– وإفرض لساني غلط، تعمل راسك براسي ؟

– لا .. بس انتي ..

– محموق عشان أبوك ؟ وماله، فيك الخير، هو اللي ربَّاك، بس أنت عصبي قوي ..

بدا لي أنه حبس في العينين دمعتين وتساقطت برغم إرادتي من عيني دموع، لعلني كدت أعتذر لكنني تماسكت، قلت أغيّر الموضوع وأنا أجفّف دموعي براحتيّ وأحدثه عن ذلك الزمن البعيد ونوادره فبدأ يجاريني ويضحك، لعله أراد أن يثبت لي أنه قادر على السيطرة على نفسه، ولعلني أردت أن أطمئن

نفسي بأنني فهمته أكثر وتأكدت أنه يستطيع في كل الحالات وبرغم كل شيء أن يرعى شرع الرب وخلقه في أمه رغم طول عمر الابتعاد .

***

طالت أيام العراك مع أولاد عوف، ولولا البارودة التي جابها الجد هارون من أرض البراري ما تمكّنا من تخويفهم، كانوا كثارا وشماريخهم لا تميز .. تطيش في كل اتجاه وتدمي، تجمعوا حول "فضالي" وأولاده وما تركوهم إلا بين مكسور ومبطوح، كادوا أن يقتلوا البكري لولا إنه رمح واختفى منهم في زراعات الذرة، هاجموا دار الجد هارون بالشماريخ والنبابيت وما أخافهم إلا رصاصة انطلقت نحو صدر "الحسنين" سقط بفعلها وحملوه، في صباح اليوم التالي عادوا مرة أخرى فانطلقت رصاصة أخرى وأصابت رأس السعيد بن الحسين، وكان أبي ينقل لنا الأخبار وهو ساخط على الجد هارون وأفعاله التي أوقفت حال تجارته، وكان ينبّه علينا بعدم الخروج من الدار، طمأننا أنة ذهب إلى الكبار من أولاد عوف وأخذ منهم الأمان لنا لأنه كما قال ضد العراك وليست له فيه مصلحة، نزلت إلى دروب الكفر عساكر الهجانة السود راكبين الجمال نصبوا خيمة أمام دوار العمدة الذي عزلوه وعينوا بدلاً منه "صول" من المركز، الوحيد الذي لم يكف عن تكسير الأوامر بالرقاد بعد المغرب وعدم الطلوع كان عبدالقادر، يقفز من فوق سطوح الدور ويصل إلى الدرب، يحرق أو ينزل ويتعارك بمعاونة أولاده وأولاد إخوته، تربَّص له الصول وعساكر الهجانة وما طالوه، أقسم الصول وهو يفتل شاربه أن

يمسكه ويرميه في الحبس مع أشقياء الناحية حتى لو نزل سابع أرض، لكنه لم يستطع رغم زيادة القوة وكثرة الوعود، فقدنا رجلين وفقدوا واحدا في أول يوم، لكن العدد زاد حتى في وجود الهجانة، وصل العدد عندنا إلى خمسة مقابل ثلاثة منهم بالإضافة إلى اثنين بين الموت والحياة، تعادلت الكفة أو كادت بحسب ما قاله أبي، ذلك الذي دخل علينا ذات مساء وهو فرحان وراح يحدثنا :

– أنا عملت اللي أقدر عليه، جريت على أكابر الناحية وطلبت منهم يشوفوا لهم حل، ماخيبوش رجايا وح يعملوا صلح، دا خراب بيوت ودم رايح بلاش، هارون عاوز يولَّع في الكفر نار، الصلح بكره في دوَّار الباشا نفسه .

في الصباح صحا مبكرا ولبس جلبابه الكشمير وتلفَّح بالعباءة، طلب منا أن ندعو له بالتوفيق ففعلنا، شعرنا بالزهو لأنه برغم كل شيء يستطيع أن يسيّر الأمور بحسب إرادته، وفي ظهيرة نفس اليوم عاد متهلل الأسارير ومن خلفه رجال العائلة الكبار، مرسى وسالم بك والجد هارون وكان بينهم العم مرزوق وآخرون، جلسوا في المندرة وعرفنا أن الصلح تم وردّدنا عبارته بأن الصلح خير، في عصر نفس اليوم زارنا بعض الغرباء، خرجوا ثم عادوا ومعهم رجال من أولاد عوف، وهدأ الحال ورحل عساكر الهجانة والصول الذي لم يستطع أن ينفذ يمينه بأخذ عبدالقادر، لكننا كنا في فرحة، زادت فرحتنا عندما عرفنا أن العم مرزوق سوف يبقى في الكفر بعد سنوات عاشها

في أرض البراري مع البك سالم، جاءت العمة فطوم وحدثتنا عن زواج العم مرزوق :

– وخلّى الفرحة فرحتين، إتغرب كتير ونسى روحه هناك، جوازته الأولانية ما جابتش عيال .. ح ناخد له بنت المرسى، صغيرة وحلوة وبكره تملا داره عيال ..

عملنا له فرح بلا طبل ولا زمر وراعينا المجروحين في أولادهم، ويوم دخوله رقصنا بدل الغوازي وقلنا إن الفرح في القلب وفرحة العروسين ببعضهم أهم من كل شيء، ليلتها شفنا عبدالقادر في وسط دار العمة فتذكرنا كلام الصول، لكنه هنأ العم مرزوق وتواعد معه على لقاء وترك المكان، وبعد أسبوع خرج العم ليقضي حاجة من السوق راكبا حماره، وعندما عاد رأيناه داخلا من ناحية البوابة في اتجاه الدرب، جرينا نحوه وناديناه، كان يضع سلة كبيرة أمامه على ظهر الحمار، وكان عبدالقادر جالسا على المصطبة فرمى عليه السلام لكنه لم يرد :

– انزل يا مرزوق

قالها عبدالقادر وهو يمسك مقود الحمار فاستجاب مكرها ونزل عن حماره وأخذنا منه السلة ووقفنا ننتظر، كان عبدالقادر عاري الرأس على غير عادته، سأله عن أخبار الزواج فتردَّد ولم يجاوب، سأله عن حلاوة بنت المرسى فطلب منه أن يحتشم، كان مفلوت اللسان لا يربطه رابط، تحسَّس كم جلبابه وسأله :

– الجلابية دي حلوه عليك قماشها منين ؟

– م البندر يا عبدالقادر، انت فايق ؟

– آه .. مين اللي مفصلها لك يا مرزوق ؟

– الغباشي .

– وهو كل من لبس جلابيه جديدة يعدي ع البوابه راكب يا مرزوق ؟

– مش كنت ترد السلام الأول يا عبدالقادر .. والكبار اتصالحوا خلاص..

– واحنا كمان كبرنا ع العركة، والشمروخ هناك أهه، مركون على جدار الحاج مصطفى، وأنا عايز أباركلك ع الجواز وألعب وياك لعبة، لعبة مافيهاش ضرب ولا خبط زي زمان .

– ما حدش فاضي يا عبدالقادر، خليني أروح .

– دانت كنت شاطر في التحطيب زمان .

– زمان بقى ..

كنا نراهما وقد أحاط بهما خلق كثار، طالت وقفتهما معا وتضاحكا وأضحكا الناس حتى زال كل القلق من احتمال عراك يقوم بينهما، همس رجل في دربنا أن عبدالقادر فرحان بروحه وأنه يسلي نفسه بالجلوس على مصاطب البوابة، يفرح بنزول الناس من فوق الركائب كلما شافوه وقالت

امرأة "إنهم صنف أهبل" ودمهم ثقيل وجلجلت عند زحمة البوابة ضحكة ممدودة وصفق رجال .

– مرزوق يا رجاله مولود معايا يوم بيوم، الوحيد اللي كنت باعمل له حساب في لعبة التحطيب، لكن بعد رجوعه من البراري ما اتقابلناش غير ليلة دخلته، رحت أبارك له .

بذلك كان يتحدث عبدالقادر وكأنه "حاوي" يدور حول نفسه وحول العم مرزوق الذي زال خوفه واندمج مشاركا في السماع والتعليق ثم عقَّب موافقا لينتهي الأمر :

– ماشي يا عبدالقادر .. نجرب لعبتك دي ..

– إن اتزحزح من مطرحه ما يعديش البوابة راكب أبداً، وإن ثبت مكانه يعدي راكب قصاد أتخن تخين في الكفر ..

هللوا لعبد القادر ووقف العم مرزوق مكانه في وضع استعداد، رفع عبدالقادر كفه اليمني إلى فوق ليراها كل الناس وقد خلت من أي شيء مجرد أصابع مفرودة على استقامتها ومتقاربة دون فراغات بين اصبع وآخر، نزلت أنا إلى أسفل وتمكنت من النفاذ إلى قلب السامر لأعرف تلك اللعبة الجديدة، رأيت عيني العم مرزوق تتابعان حركة الكف المفرود وعلى وجهه ابتسامة صلح لكل الناس، يثبت قدميه في الأرض واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وعندما طالت أطراف أصابع عبدالقادر فم معدة العم مرزوق لم

يهتز مجرد اهتزاز، صفقَّنا له بحرارة وتلفَّت عبدالقادر حول نفسه وأنزل كفه، انزاح عن طريق العم مرزوق وحياه بحماس :

– عفارم عليك يا مرزوق، لأ راجل يا وله، تبقى أنت كده كسبت الرهان، تعدي راكب حمارك في أي وقت ما تنزلش من عليه، واشهدوا يا أهل الكفر ع الكلام ده .

وضحك الناس ربما حسبوه قد أصيب بطوفة في عقله مفاجئة وهو يمد يده ليفك حمار مرزوق المربوط في حديد شباك التهامي ويحمل سبت مرزوق ويضعه عليه ويضحك هامسا :

– ما تركب .

– مش مستاهله .

رد العم مرزوق وحملت عطيات السبت وسارت خلفه بينما سحب ولد حبل الحمار، وانفض السامر الذي عمله عبدالقادر يتندرون على لعبته الصبيانية ورهانه الخسران لكن عبدالقادر كان واقفا مازال يتابع العم مرزوق حتى تعثر لأول مرة في خطواته فانطلقت ضحكته، أسرع رجال من أولاد شلبي يسندونه ليصلب طوله بينهم حتى أوصلوه إلى دار العمَّة فطوم، كنت وسطهم ورأيتها وهي تخبط صدرها بكفها في فزع، حاول العم مرزوق طمأنتها بعسر :

– ما تخافيش نفسي غامّة عليّه شويه .

أجلسوه وقدموا إليه اللبن الرائب، شرب منه الكثير وطرد ما كان في جوفه من بقايا مأكولات لم يصرفها، ثم عاود الشرب وأرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانية عكَّرت بياضه، شرب وأرجع ثم عاود الشرب وأرجع وهو يتصبب عرقا والعمَّة تسنده على صدرها وعيناها تلمعان بسؤال غير منطوق:

– بايني كلت حاجة مسمومة في البندر .

قالها من بين أسنانه بعسر ثم تدحرج على أرضية المكان، أسندوه وأراحوه على كيس قطن مكبوس، طالبنا بأن نغطيه فحطت العمَّة على جسمه حرام الصوف، كان الوقت يمضي والعرق يتصبب على وجهه، نقلوه على فراشه وأحاطوه والعرق يغطيه ويتساقط على الفراش، وجهه "مزرود" ونَفَسه "مكروش"، ربما غفا فتركناه يرتاح، وفي الفجر سمعنا صوت العمَّة المستغيث فذهبنا، كان هناك الجد هارون وكان مرزوق يمسك بيده وكأنه يتعلق بحبل النجاة، همس بعسر وبصوت متقطع:

– لو نفدت بعمري .. لو نفدت النوبة .. أبقى كسبت الملعون ده .. زي ما يكون دخل صوابعه في لحم بطني، غرزها زي المسلة، لو نفدت، أبقى كسبت، ما تخافيش يا فطوم، إن رحت فيها ما تفرطيش في التار من عبدالقادر .. التار..

كانت هي تتسمَّع وقد اتسعت حدقتاها أكثر من أي وقت اتسعت فيه تلك الحدقتان، وكان الجد هارون يهز رأسه بصلابة رجل مسئول عن عراك حرَّض عليه، كسب وخسر لكنه لم يعرف اليأس وإن امتلأ قلبه بالمرار، كان

يبدو أنه عرف النهاية قبلنا جميعا، فجلس يتسمَّع هلوسات العم مرزوق التي لا يربطها غير العجز وقسوة الوجع، وفي ساعة الضحى خبا وجه العم مرزوق وانعدمت أنفاسه، انطفأ سراجه وكف عن الأنين والهمس والحركة، وفاتت على الدرب في ظهيرة ذلك اليوم سحابة معتمة سوّدت النهار وما أفاد فيه لطم ولا ندب ولا بكاء .

***

كان يحدثهم بحماس عن السد العالي والحديد والصلب وتأميم القناة، عن إزالة آثار العدوان وضرورة العبور، لا أدري لماذا تذكَّرت صوت مذيع نشرة الأخبار التي نادرا ما كنا نسمعها أو نهتم بها، كان كل ما بيننا وبين عبدالناصر هو تلك الحكاية القديمة عن البك سالم كبير العائلة في أرض البراري، ذلك الذي أخذوا منه أرضه ووزعوها على الأنفار "وتملّية" الغيطان، وكيف أن البك سالم نفسه مات ناقص العمر بحسرة الأرض التي أصلحها وزرعها وكانت في السابق مهجورة ضمن البراري المشاع التي لا صاحب لها ولا مالك، حتى ابنه الضابط الكبير عجز عن حمايتها، نقلوه إلى بلد اسمها السلوم بعيد ثم أحالوه للمعاش وهو في سن الشغل، وكان عبدالناصر بُعبع علّام الذي كان يتوقع تأميم دكَّانه بين يوم وليلة، اشترى أرضا وعمل فيها منحلا وسوّر أرضا وحوّلها إلى جنينة فواكه وتاجر في السلاح متخفيا بقلق من احتمال استيلاء الحكومة على ماله فلجأ إلى توزيعه، كتب الدكان باسم

شاكر والمنحل باسم سعاد، سرحت في الزمن القديم وأنا أسمع سيد بقلق وأرد عليه .

– ازاي بقى ياسيد ؟ هي صوابعك زي بعضهم ؟

– كلنا ولاد تسعه .

ردّ على بحدة كرهتها فيه، كنت أحبه وأكره أفكاره التي تساوي بين كل الناس، الناصح والخائب، المالك والأجير، وكان قد نال إعجاب شاكر فخفت عليه، شاكر قليل الحيلة لا يسنده غير القرش وما يملكه يمينه أما هو فله مرتب معلوم ومضمون الصّرف في أول كل شهر، حسن ظل طوال عمره لا يحسب للزمن حسابا، ضيّع ميراثه بالكسل وتاه في البلاد، صحيح أنه ربّاه وعلمه وعاش حتى وظَّفه، لكنه فشل في أن يوعّيه بالدنيا والناس، خيَّبه وأفسد عقله ولو لم أحرص على شاكر فربما يخيب، شاكر غلبان، وأبوه حويط، عاش عمره بطوله ناصحا لنفسه، لو ورث شاكر بعض حرص أبيه لاطمأن قلبي من ناحيته، ولو خلص سيد من طباع حسن ما خفت منه على شاكر:

– بقى ولاد الناس الطيبين المستورين ح يتساووا مع الخلق الزباله اللي لا وراهم ولا قدامهم ياسي سيد ؟ دا حتى ربنا ما قالش كده .

قالها علام وانتظر من سيد الرد :

– ربنا ما يرضاش ناس تمص دم ناس، تسرق عرق ناس، فكرك السرقة شطارة .

تدخلت :

– ما حدش قال كده، السرقة حرام لكن التجارة حلال .

وتحمّس علَّام :

– دا قصر ديل يا أزعر، بقى أنا أبقى صاحب ملك وعايزني أتساوى مع واحد من خدَّاميني ؟ دا كلام جرانين .. ما حنا برضه بنقرا ياسي سيد .

– والتجارة شطارة .

قال شاكر وهو ينظر إلى أبيه في محاولة لطمأنته عليه، قلت لنفسي أغير الموضوع :

– بقى ما تجيش غير وأنا راقده يا سيد ؟

تحيَّر إن كان من اللائق أن يستمر في جداله مع علَّام وبكري وشاكر أو يرد على كلامي، قلت بنغمة عتاب وأنا أحاول إضحاكه وإضحاكهم :

– ياخويا خليك ف حالك وبلاش وجع قلب .

– سيد أفندي بيتكلم في السياسة يا أم شاكر .

قالها بكري مباهيا فعلَّقت :

– قطيعة السياسة واللي بيجي منها، أوعاك تكون صحيح من بتوع السياسة ياسيد .

بدت عليه الدهشة وهو يسأل :

– وهي السياسة عيب ؟

تحفَّز علَّام واعتدل في جلسته قبل أن يوضح :

– زي الست الوالدة ما بتقول كده، ما بيجيش منها غير وجع القلب، طيب بلاش كده، سليمان ابن مطاوع بقاله قد إيه محبوس من جرّة السياسة ياسي بكري ؟ أكثر من ثلاث سنين النهاردة .

– أصله إخوان مسلمين، إنما سي سيد اتحاد اشتراكي .

قال بكري فعلَّق سيد باستفسار فيه إنكار :

– اتحاد اشتراكي ؟

تدخّل علَّام :

– أهم كلهم شبه بعض، دا الولد سليمان ابن مطاوع ده انضرب ضرب هناك ما يكلوش حرامي في مولد، الكلام ده مش من عندي، دا من حنك أبوه نفسه، وأهو سايب عياله متبهدلين، خد إيه بقى ؟ دول عالم صايعين وعاوزين يأخرونا .

قلت أنهي الأمر بأي شكل، زفرت بضيق وقلت :

– إحنا مش ح نبطّل كلام بقى ؟ ناكل لنا لقمة .

تململ سيد في قعدته وتابعه علَّام في تدقيق ظاهر، ولابد أنه كان يتوقع أن يخاف سيد من كلامه عن سليمان ابن مطاوع، لكن سيد ظلّ على حاله .. متحفزا لمزيد من الكلام وخجلانا من بدء حوار جديد ربما لكي يرضيني،

لكنني لم أكن راضية عليه في تلك الظهيرة، فلو تركته على هواه لظل يتكلم لساعات في أمور لا تفيد، تأميم وإصلاح زراعي وحرب، ومن منّا استفاد من هذه الأشياء، وكيف أستطيع أن أليّن له دماغه الذي لابد أنه أصلب من حجر الطاحونة، تماماً مثل أبيه .

***

في الخميس الكبير حلّت شعرها فانسدل على الصدر والظهر خصلات ذهبية ناعمة تحللت من ربطة الضفائر، خرجت من دارها حافية القدمين وحولها وفي أعقابها النسوة لابسات السواد وثوبها ملوّن، سبقت الرجال خلافا لما اعتدناه من طباع أهل الكفر، كانت تناديه بصوت عال قبل أن تندب وترد عليها أصوات النسوة :

– يا قتيل بعد الزفة ..... يا عريس

– ملحقتش تفرح بالخلفة ..... يا عريس

بعدها تهبد صدرها براحتيها فيترجرج تحت قميصها وقد تزايد احمرار لحمها الظاهر للعيون حراماً مباحاً من أثر النار الساكنة صدرها وصدورنا منذ قتل العم مرزوق، كانت عيون الخلق تطل والشفاه تتصعَّب تأسيا من أجلها وأجله، حتى أبي الذي ما حزن في كل عمره كل هذا الحزن أبداً كان يناديها بوهن ويوصيها بأن ترحم نفسها ولا تستجيب، كانت تهبد صدرها بعنف أكثر، سبقتنا ونحن وراءها حتى وصلت إلى أول المدافن، انحنت

وحطّت على رأسها طيناً من المسرب، عاصت صدغيها وصدرها وأجزاء من ثوبها الملون، وعند قبره وقد أحاطوها لفّت خصلة من شعرها حول كفها اليمني وقرّبتها من عينيها ثم أقسمت :

– وحياة مقصوصي يا مرزوق ماحد ح ياخد بتارك غيري، لا ح أهدا ولا يرتاح لي بال غير لما ترتاح في قبرك .

أحطناها من كل ناحية فنظرت إلى الكل بغل وكراهية لم أفهم أسبابها، طلبت منهم أن ينزاحوا بعيدًا عنها، كانت تقصد إبعاد الرجال فانسلتوا من أمام المدفن رجلا في إثر رجل وما تبقى حوله غير الحريم والعيال، كانت جالسة على ركبتيها كأنها أمام ماجور عجين وهي تضرب براحتيها جداره فتنغرسان كفوفاً مفرودة في الطمي المخلوط بنخالة التبن جافاً ومستجيباً للخبطات، كأنها من كثرة لهفتها توقظ حياً راحت عليه نومة وسوف يقوم بعد الخبطة التالية ويخرج من خلف الجدار :

– قوم يا سبع من رقدتك، يا خيبتي في الرجالة من بعدك، قوم يا مرزوق، قمصان عروستك في الصندوق ألوان ألوان .. وتارك في رقابي النسوان .

وتنطلق الأصوات، يتقارب الرجال ويتباعدون بحذر، وعندما بدا لهم أن قواها انهدت وبحَّ صوتها ولم تكف عن النحيب، اقتربت منها زاهية بنت فضالي وحاولت إبعادها عن المدفن، لعلها استجابت دون وعي وقامت نصف قومه بمساعدة النسوة، همست زاهية بصوتها الحزين :

– كلنا مجروحين ياختي، خليه يرتاح في نومته .

وكأنما أفاقت العمَّة من غفوة طارئة، نظرت أمامها وإلى وجه زاهية وكأنها ماتوقعت أن تراها، فردت ذراعيها بطولها فسقطت زاهية بعيدا عند حافة المسرب، زامت نسوة وساعدن زاهية على الوقوف ثم جرؤن جميعاً على الاقتراب وأحطن العمة من كل جانب، وفي صمت استجابت بوعي أو بغير وعي وسارت بينهن إلى الطريق خارجات من مدخل المدافن والرجال يجرجون مداساتهم على الأرض ويثيرون مزيداً من الرماد .

عند البوابة الكبيرة بدأت تولول وتلطم وتنادي مرزوق، وقفت في نفس المكان الذي كان يقف فيه عبدالقادر وما عاد، كانت تبدو حائرة ولا أحد في مواجهتها، سارت خطوات وبدا لها أنها رأته واقفا وسط رجال من أهله وما رأيناه، سمعناها تسبه وتلعنه وترمي على الجدار الذي تمثلته خصماً نظرة وعيد بانتقام يجري على ألسنة الناس في مستقبل قريب، ربما انحفر في قلبها جب لكراهية ليس له قرار ولا تقدر أن تمحوها دورة الأيام والسنين .

***

حدثني في هدأة الليل عن وحدته في طفولته وصباه، عن قسوة الأشواق التي ما تحققت طوال العمر ليكون له أخ أو أخت أو ابن عم شقيق، صعب عليّ حاله وطيَّبت خاطرة، دعوت لشاكر وسعاد بدوام البقاء، تنهَّد في حسرة وهزّ دماغه المستسلم :

– ما هو طالع زي حالاتي، وحداني ومالوش ضهر .

وأكمل بعدها وكأنها تذكر أمراً وقد زاغت نظراته :

– هو سيد ابنك مبعد عننا ليه ؟ دا اللي مالوش أهل بيشتري له أهل، خايف يكون أبوه مقريه ومحفضه كلام غلط عنك .

– هو حر، إحنا مش محتاجين له في حاجه ولا هو محتاج لنا .

لعلني قصدت أن أؤكد له عدم حاجته أكثر، ربما كنت أطمئنه وأطمئن نفسي في ذات الوقت، سمعته يجاريني ويسايرني وقد زاد استعداده للكلام :

– ما أنا عارف كل حاجه، ح يحتاج لنا في إيه بس، داحنا اللي محتاجين أخ لابنك، وحتى لو كان محتاج لنا هو غريب ؟

كانت نبرة التساهل في صوته لا ترضيني، وكان في داخلي كلام محبوس أعجز عن الردّ به، خفت إن اندفعت أن أغضب وأغضبه وإذا عمل مجلس للتحقيق أكون غلطانة، يطلع من الموضوع مثلما تطلع الشعرة من العجين وأنغرس أنا فيه كما هي العادة، فضَّلت السكوت، وفكرت، كانت زيارات سيد التي لم أتوقعها قد غيَّرت في علَّام أشياء، بعد زمان عشناه بلا قلق إثر خلافه مع أبي الذي طال حول حسابات قديمة ثم خلافه مع أمي وحرماني من زيارتها أو زيارتي جاء سيد، لعله بعد أن جالسه مراراً وحدّثه واستكشف أغراضه حسبها بينه وبين نفسه، ربما قال لنفسه أن وجود أخ غير شقيق لشاكر أفضل من وحدته الكاملة، ولعله خاف أيضاً، لعل مرارته الحقيقية كانت بسبب تأكده من استحالة مقدرته على خلفة جديدة من صلبه، ولعله

سلّم على كره منه بقبول بديل يخشاه ويتخوف من وجوده في نفس الوقت، قبل أن يراه وعلى امتداد السنوات كان لا يطيق سيرته، لكنه بعد أن رآه تبدّل وجعل يحوم بأسئلته عنه في الأيام الأخيرة، ولعلني بحذرى لم أقدم جواباً شافياً لسؤال واحد، ربما لأن الأسئلة نفسها كانت تحوم في دماغي ولا أجد لها جوابا أو تفسيرا، وهل كان سيد بالنسبة لي مجرد امتداد أو أثر حي لحياتي مع حسن، تلك الحياة القصيرة التي أنهاها هو بغشم وخلّف لي مهانة العمر المدفونة كجمرة تحت رماد هزيل ينفخ فيه ولد من بطني بجرأه فينزاح وتتّقد الجمرة من جديد ؟ هل هو وإن حمل نفس الملامح ابنه وحده أو أنني شريكته فيه شركة الأعداء، لعلني كنت قد ارتحت منه وتعوَّدت على مجرد الاشتياق، لعلني جننت وحرصت على كتمان أمارات جنوني بالصمت وكل ما أخشاه هو البوح، الولد نفسه يختلف أكثر مما يتشابه مع كل صنفه، على الأقل هذا هو ما تبدى لي وربما لا يكون صحيحاً، وكيف أحكم عليه وأفهمه وهو في كل لقاء محاصر معي بنظراتهم، يتدخلون في كل عبارة تقال مجاملة أو حرصا على إبعاده عني وإبعادي عنه، ربما لو اختليت به ساعتين أفهمه، وربما لو خلص هو من إحساسه بالغربة عن المكان والناس لفهمته وفهمني، لكنني أمه، أمه وما يربطني به حبل سرّي جديد ومختلف، لعله لم ينقطع أبدًا، قال علَّام متلطفا قدر المستطاع ليقطع عليّ سرحاني في البعيد :

– بس العلام حاجه تانيه، اللي محيرني يا أم شاكر، أبوه كان بيصرف عليه منين ؟ أنا سمعت إن حالته كانت مش ولابد .

– ما عرفش .

قلتها بشيء من الغضب، لعله أدرك أنني على غير استعداد للاستمرار في السماع أو الرد، قام من مكانه، تلفّت حواليه وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه في غفلة، خرج من باب "المقعد" ثم عاد، أطل بنظرة ليتأكد من وجودي في نفس مكاني، سمعت صوت خطواته وهو ينزل السلم إلى وسط الدار، متباطئاً في نزوله وربما متوقعاً مني أن أناديه وأسأله إلى أين يتجه وقد انتصف الليل وسيطرت خارج القاعة عتمة .

***

بعد دفنة عبد الونيس ابن الزناتي عوف بأيام طلبتني فذهبت إلى دارها، حطّت أمامي صحناً فيه "سد الحنك" وطلبت مني أن آكله ففعلت حتى امتلأت، أحضرت لي قلماً وورقة وطلبت مني أن أكتب :

البيه المأمور

نعرفك أن عبد الونيس عوف مات قتيل والقاتل ابن عمه عبد القادر جاره في الأرض والدار والسبب نزاع على فدان ملك، والكاتب يخاف على روحه وأولاده من ظلم العمده المنسوب لأولاد عوف، والذي رجع بعد عزله وزاد ظلمه، والمولى عز وجل أمرنا والرسول أمرنا "ومن رأى منكم منكرا" وقال "ولا تكتموا الشهادة" وبلاغي لكم شهادة لوجه الله الكريم، والكاتب نفر مؤمن من كفر عسكر التي زاد فيها الظلم ويخاف يبوح باسمه ولو أن الأعمار بيد الله .

أخذت مني الورقة وحطَّتها في دولاب الحائط وناولتني ظرفا لأكتب عليه عنوان مدير مديرية الأمن، فعلت فقبَّلتني وطالبتني بعدم البوح أبدا لأي إنسان بما كان، وعدتها بالكتمان فأحاطتني بيديها وسرحت في البعيد .

بعد أيام جاءت الحكومة، عسكر وهجَّانة بربر على جمال، انتشروا في دروب الكفر ومداخله، قالوا إن الحكومة بحثت عن عبد القادر فما وجدته، وقالوا أن الصول الراجع أقسم بشرف أمه هذه المرة أن يسعى وراءه ولو راح في "سفا العفاريت". دخل المعاون دوّار العمدة والتقى بحكيم الصحة ووكيل النيابة قبل أن يتحرك الجميع إلى المدافن، رأينا عسكر الحكومة وبرابرة الهجَّانة يحوطونها من كل جانب، يدفعون النسوة من أولاد عوف بكعوب البنادق والشوم ويطاردون الرجال بالكرابيج السوداني، كانوا يطاردونهم في دروب الكفر حتى يدخلوا البيوت، وكانت الحكومة قد أمرت بفتح المدفن وإخراج جثة عبد الونيس ليكشف عليها الحكيم ثم يأمر بإعادتها إلى نفس المكان، قالوا إن العمدة سعى لكل أولاد عوف وجمع منهم الأموال التي دفعها للحكيم كي يكتب أن الوفاة طبيعية وليست بفعل فاعل وأن يحافظ أيضاً على حرمة الميت ولا يشرّح الجثة، وعندما قرّر حكيم الصحة أن البلاغ كاذب جمع المعاون عسكره وبرابرة الهجانة وتخلّف الصول، رحلوا ونبَّهوا على العمدة بإبلاغهم بما يستجد في مسألة غياب الصول، وعاد الحذر مسيطرا على جماعتنا، غضب أبي وسب ولعن كاتب البلاغ :

– نصايب وبتتلقَّح علينا، كله من هارون، عايز يولع في الكفر نار .

كرهته في تلك الليلة، ربما لأنني شاركت العمَّة في كتابة البلاغ، ربما لأنني حزنت مثلها على العم مرزوق الذي تسبَّب عبد القادر في موته .

– عبد القادر مالوش دعوة، مرزوق أخويا كان واكل سمك مسموم مع نفر في كفر الشرفا مات في ليلتها ولا حد دريان .

تشكَّكنا في الأمر وكرهنا فيه كل هذا الخنوع، لم يكن ما رأيناه بأعيننا لعبة كما يقول، ولم يكن ما يشاع عن عبد القادر كله أكاذيب، حتى لو كانت الحكومة قد كفَّت عن البحث عنه فهو ما زال قادراً على رمي بلاه على خلق الله، رأيناه واقفاً عند البوابة الكبيرة يلاعب إبراهيم عوف لعبة التحطيب، مزهوا بنفسه إلى حد الغرور، وعندما كسب إبراهيم ضحك الأخير وحذره من الصول الساعي في وسط الزراعات بحثاً عنه فضحك بملء شدقيه ساخراً، ذكروا اسم العمَّة التي توعدته في غيابه فجاوبهم .

– نسوان مش لاقيه اللي يكسرها ومالهاش كبير .

اغتظت منه ورحت أحدث العمَّة فأخذتني إلى دار الجد هارون وطلبت مني أن أكرر ما سمعته أمامه، هز رأسه وأوصاني بإبلاغ أبي بضرورة أن يأتي إلى داره في المساء، وفي المساء أخذني أبي معه ودخل الدار، كانت العمَّة هناك وكان جمع من الرجال، وهي إلى جوار الجد هارون تشبهه في الكثير، قال المنصور شلبي :

– نأجر المرسى الدبَّاغ عليه .

رد الجد هارون:

– نلم فلوس ونشتري باروده تانية ولا اتنين .

تململ أبي وهو جالس إلى جانبي، لعله أراد أن يعترض وخاف من مواجهة الجميع، انكمش في عباءته وفضَّل السكوت :

– الكفة مالت ويّانا والضرب النهاردة أحسن من التأجيل .

– مالكيش كلام في وجود أبويا هارون يا فطوم .

قالها الحاج مرسي فلم تكلف نفسها عناء الرد عليه، قام المنصور ودارت عيناه في الوجوه، حدَّث الجد هارون :

– أخبط الكبير فيهم بالبلطة في عز الضهر، بس اكتبوا لعيالي خمس فدادين.

– مفيش غير السلاح، المقاريط، ح نلم فلوس .

عقّب الجد هارون بحسم .

– وأنا دفَّاعة في اللي تقولوا عليه .

قالت العمَّة باطمئنان من يملك تنفيذ الكلمة لكن الحاج مرسي اعترض:

– تاني يا فطوم، خبر إيه يابا هارون ؟ هي مجالسنا ح تنحكم برأي النسوان؟

سأل مستنكراً وقد قام محتجا على سكوت المجلس، لكنها أضافت وبنفس الثقة :

– مفيش في عيلتنا رجاله وحريم، اللي ح يقدر على حاجة يعملها، راجل أو ست أو حتى عيلة صغيرة زي دهه ..

أشارت إليّ فالتفتوا وشعرت بأن لي قيمة وأنني شريكة في هذه الجلسات، معمول لها حساب، كان الجد هارون ينظر ناحيتي ويبتسم عندما وقف الحاج مرسي ثائراً :

– أنا ماليش قعاد في مجلس تحضره فطوم من بعد الليلة .

قالها وهو واقف، تلفع بالعباءة على عجل وهو يسب الزمان الذي أخرس الرجال وطوَّل ألسنة النساء تناطح الرجال وتلاوعهم ولا تقيم لهيبتهم وزناً، خرج من الدار وفي إثره ابنه الكبير، وساد صمت قطعته العمَّة بكلام عن ديون مطلوبة من الحاج مرسي الذي يشتري الأرض ويورّط نفسه طمعاناً أن يكون صاحب أكبر حيازة في الكفر، وأن كل ما فعله مجرد هروب من حكم المجلس على الحاضرين، ربما كانوا قد اتفقوا على دفع مبالغ جديدة، وربما كان أبي قد وعد بالدفع غداً، لكنه في سكة الرجوع كان يبرطم بكلام لا أفهمه عن الجد هارون الذي قبل أن تسيّره العمَّة بحسب ما ترجو وما تريد، كان يخبط كفا بكف مبدياً سخطه على بنت "بهانة" التي تملك وتحكم وتتحكم في مصائر الرجال، وكنت أشعر أنه يهيننني لأنني بنت وسوف أكون عندما أكبر مثل العمَّة فطوم، وسوف أفعل في مجالس الرجال ما يحلو لي وسوف أقدر على الكثير .

***

فتح حقيبته وأخرج منها قطعة قماش ناولها لي، وعلبة صغيرة فيها سلسلة وآية الكرسي من الفضة لسعاد وقلم حبر لشاكر، كانت أول مرة أتلقى منه

هدية، علَّقت سعاد سلسلتها الفضة في رقبتها وبدت سعيدة، جرب شاكر قلم الحبر في الكتابة بخطه المنكوش ونزل المطر، قمنا من وسط الدار ودخلنا المندرة، عاتبته لأنه كلَّف نفسه فقال إنها أشياء بسيطة وجدها في طريقه وهو يتجول استعداداً لميعاد السفر، زادت رخَّات المطر ودخل علَّام مبلول الثوب يتشكى من شدة المطر، سلَّم وجلس فأريناه هدايا سيد فتفحصها ولامه لأنه يشغل نفسه بهذه الأمور وكل شيء موجود في البندر، وزادت حدة المطر، وكان الجو قد تلبَّد بغيوم عتَّمت النهار وما توقف المطر .. ساعة أو ساعتين وما كفَّت السماء عن إنزال المطر، نظر في ساعته بقلق فسألته عن أسباب ذلك القلق، كان قد اعتاد الذهاب إلى دار صالح في دريهم وكنت لا أعترض، أقول لنفسي يكون على راحته مادمت أراه كلما جاء لزيارة الكفر، لكن الأمر كان يختلف، طرق الكفر موحلة والعتمة مسيطرة وعلام جالس لا ينطق بالمزيد .. قام سيد عاقدا العزم على الذهاب إلى دار صالح :

– استني ياسي سيد لما النطرة تخف شويه، مش قادر أقولك بات مع أخواتك تكسفني .

قال علام فتشجعت وأيدته :

– ماحدش يقدر يمشي دلوقت، ح تروح فين ..؟

تحمَّس شاكر لرقاده تلك الليلة معه، ومن جديد سكت علَّام، كنت في مأزق وكان هو الآخر في مأزق وكان من المستحيل أن أعرضه لمخاطر السقوط في وحل دربنا وكل دروب الكفر من أجل ليلة يبيت فيها في دار

صالح، فقطعت الصمت وأجلسته وهلَّل الأولاد لأنني أفلحت في التأثير عليه ليبيت في الدار لأول مرة منذ رأيناه بفضل المطر .

***

دخل الدرب رمحاً والمنصور أمامه، اعترض الرجال المتربصون طريقه فراح يطوّح بعصاه في كل اتجاه، كانوا يتحاشون ضرباته بالابتعاد ثم يتكاثرون عليه بعصيهم فيدور حول نفسه والعصا مفرودة "دوخيني ياليمونة" يتباعدون ويلبدون في الأركان ومداخل البيوت وجنب الحيطان، سمعتهم يتعجلون عودة المنصور بالبلطة ورأيناه يعدل نفسه ليرى باب دار المنصور الذي ما انفتح، قال البكري من فوق السطح إن المنصور فرّ بجلده ولن يعود، كانوا يحومون حول علي عوف بجرأة معتمدين على كثرتهم، يكسرون خوفهم القديم منه لأنه كما يقولون أحسن من يستخدم النبوت في دائرة المديرية، كان وسط الدَّرب يلعب أكثر مما يتعارك، أو على الأقل هذا هو ما ظهر بسبب ضحكاته وسخرياته من أمور لا أعرفها، وهم يجعرون عندما توشك عصاه أن تطول أطرافهم، كأنه ثور هائج مطلوق وجمع من الناس حوله وأمامه يبحثون عن مكان المسكة الصائبة بعيداً عن إحتمالات الخطر ثم انفتح بابها فتباطأت العصي التي يحملونها ثم استكانت، لا أذكر أنها طالبتهم بذلك، ربما كان في طلوعها من الباب أمراً محسوساً وربما كانت لهيبتها أثر على الجميع، تناثروا في الأركان وتراخت العصا في يمين علي عوف ثم انحطّ طرفها على الأرض وارتكز عليها، كانت هي تقترب منه

على مهل وعلى وجهها ترف ابتسامة حسب بسببها أن المعركة قد انتهت عند هذا الحد، نظر إليها بثبات وطرف جلبابه مرفوع بيده الخالية دون قصد، لعله همّ بأن يقول كلاما أو جهَّز نفسه للسماع منها وقد صارت أمامه تماماً، لكنه خلافاً لكل توقعاته وتوقعات من كانوا ينظرون وينتظرون تجاسرت وأمستكه بيدها اليمنى من مكان القدرة فيه، بوغت وارتبك وحارت عيناه، حاول أن يتراجع خطوة إلى الخلف لكنه لم يفلح، عافر ليخلص نفسه دون جدوى، كان فمه المفتوح يفرز لعاباً عجز عن السيطرة عليه، أصدر أصواتاً مبهمة وازرقَّت سحنته، احمرّت عيناه ثم نخ كجمل جريح، بركت هي فوقه، تباطأت حركته أكثر وهي تكز على أسنانها لتستجلب عزما فوق عزمها، تشنج وارتعش رأسه الذي انفك طرف شاله الملفوف وتدحرجت طاقيته التي على شكل عمامة انقلبت قريباً منه، حسبناه قد مات لحظة أن كف بدنه عن الحركة تماماً، تساندت هي على صدره بركبتيها وقامت، مسحت كفها المفرود في قميصها الملون فوق فخذها اليمني عدة مرات وابتعدت عنه، بصقت على الأرض وقالت بصوت مبحوح للرجال :

– اضربوه .

تبادلوا بضع نظرات، ربما قالت نظراتهم إن الضرب في الميت حرام لكنها أمرتهم مرة أخرى بحزم فنزلت الضربات فوق بدنه ورأسه المكشوف وظهر لنا أنه لم يكن ميتاً، كان ينتفض إنتفاضات هزيلة إثر كل ضربة مؤثرة وكأنه قرموط سمك مرمي على الأرض قبل تمام السكون، أشارت لهم بأن يكفوا

فكفوا، اقتربت منه بعد أن شمّرت ساعديها، قلبته فانقلب راقدا على ظهره وتقاطيع الوجه المغلوب مكسوة ببقايا ألم، شالت عصاه من على الأرض واستندت عليها، حدثتهم أو حدّثت نفسها :

– كده يبقى انقطع خلفه .

ظهر المنصور حاملاً في يمينه البلطة المسنونة تبرق في ضوء الشمس سألها وكأنه يعرف ردَّها قبل أن يسأل :

– اقطع لك رقبته ؟

لم تكلف نفسها عناء الرد واكتفت بأن تشير إليه ليبتعد، ثم قررت وهي تنظر إلى بابها المفتوح :

– دخلوه وسط الدار .

حملوه وأدخلوه فنظرت إلى بكري :

– طيران ع المركز، بلغ عن قتيل في الدار وأطلب المأمور .

خرج البكري وخرجوا تباعاً، بقيت معها ورأيتها تمزق قميصها بيديها عن صدرها فينتفض متفجراً والبطن عار، طلبت مني أن آتيها بملاءه غطّت بها عريها وجلست على طرف الدكَّة تفكر أو تنتظر، طال الوقت فسكَّت بابها بالضبة والمفتاح، كان وجهها الحزين في تلك القيلولة لا يشبه العمَّة فطوم أكثر مما يشبه ذلك الرسم الذي كنت أراه في صندوق الدنيا على فترات

متباعدة ويسميه صاحب الصندوق "فاطمة بنت برّي" التي ضحكت على البدوي .

***

لسعتني حلة الطبيخ فكتمت وجعي، كسرت على مكان اللّسعة بيضة ولففتها بقطعة قماش، فاتت سعاد فداريت اليد الملسوعة حتى دخلت القاعة، تشاغلت بتجهيز العشاء سمعت نداء علّام يستعجلني فاستمهلته ليتشرب الأرز، جلست أسترجع ما قاله علام في عصر نفس اليوم عن سيد "موظف على قدر حاله ويحتاج المساعدة" "أي مساعدة يا علّام ؟" حرصك على مالك خوّفني وجعلني أراجع نفسي في كل شيء وقبل أي تصرف مخافة أن تظن أنني أرسلت إليهم من حرّ مالك قرشاً، كنت أحاسبك بالمليم فتسكتني وتقول عبارتك المكررة "المصلحة واحدة" لكنها أبدا لم تكن واحدة، حساباتك مع أبي كانت مجرد كلام ناعم وورق مكتوب تكسر به عينيه أمام الناس، مازلت أذكر صوته الأسيان الممرور :

– يا بنتي انتي مالكيش دعوة بحسابي معاه .

لكنه كان يتعامل معي على أساس أنني كنت السبب، لم ينتظر كثيراً بعد موت أبي وأغضبني، رماني في الدار الخراب ما يزيد عن سنة وهو عارف، طلبت الطّلاق فما رضى، جعلني بحسب ما كان يقول للناس مثل بيت الوقف، والآن يلمِّح لي بسيد، ليته يكف عن المجيء إلى الكفر أو يدخل داره، ربما انخدعت بمعسول الكلام وسعيت بكل طاقتي لأجعل سيد يدخلها،

وكيف يتحكَّم عقلي وأعصابي حتى لا تنزرع في قلبه الشكوك الجديدة، وهل ألوم أبي الذي رحل أو ألوم العمَّة التي تخلَّت عني في أصعب الظروف، أو ألوم نفسي لأنني تدخلت بالفعل في أمر لا يخصني وتسبَّبت في خلافات لم تنته ومازالت قابلة للنمو من جديد ؟

– خبر إيه .. الرز باينه شاط .

قالها علَّام وهو واقف قبالتي وسعاد تنزل الحلة عن النار .. تقلب محتوياتها في إناء آخر، كنت أشعر بدوخة ومكان اللّسعة في كفي يكويني، كان ينظر إلى سعاد ويهز كتفيه إلى أعلى علامة الدهشة وعدم فهم الأسباب :

– هي مالها ؟..

لم يتلق رداً من البنت، ربما لأن البنت نفسها لم تكن تعرف، كانت مشغولة بتجهيز العشاء وإصلاح ما أفسدته وأنا تائهة في أفكاري، دخل شاكر على عادته يستفسر عن العشاء ويكشف الأغطية ليطمئن، دخل القاعة وخرجت سعاد، وقفت أمامي في صمت، نظرت إلى كفي الملفوف وارتكزت على ركبتيها، نظرت إليّ في حنو وهمست :

– إيدك مالها ؟

– مفيش ..

– وريني كده .. ياه دي مفأفأه .. حرق ؟

– لسعة ..

– وسايباها كده ؟

– كسرت عليها بيضة .

– بيضة ؟ ح أجيب لك مرهم الحروق .

– اسكتي دلوقتي، بعد ما يتعشوا .

لم يعجبها إقتراحي وخرجت إلى المندرة البحرية، سمعت صوت علّام الذي يمضغ :

– هو انتو مش ح تتعشوا الليلة، أمك باينها غضبانه يا شاكر .

– ليه ..؟

جاءت سعاد، حطّت على مكان اللّسعة مرهم الحروق ومن فوقه قطنة وربطتها بشاش، شعرت بالتآكل في كفي، ابتسمت البنت .. "البنت حبيبة أمها" تشعر بها وتحنو عليها فلماذا تعشق نسوة الكفر خلفة الأولاد ويشعرن بحسرة لخلفة البنات ؟.. مدّت يدها ليدي تساعدني على القيام، سبقتني ووسَّعت لي مكاناً بينها وبين شاكر، كان علّام يمضغ وشاكر يمضغ وسعاد تنتظر ناظرة إليّ مؤجلة البداية إلى أن أبدأ على عادتها، قال علّام من بين أسنانه:

– مالك .؟

– مفيش .

– إيدها اتحرقت .

قالت سعاد .. نظر شاكر باهتمام قليل أما علَّام فحاول أن يتضاحك أو يضحكهم :

– تستاهلي، من ظلمك .

– شمتان ؟

– كلي كلي .. تحبي أأكلك ؟ زمان كنت باأكلها بايدي .. فاكره يا أم شاكر؟

– فاكره .

ضحك علَّام، ربما أدرك أنني على غير استعداد للضحك أو حتى سماع الكلام، مددت يدي السليمة وبدأت في تناول الطعام، لعلني كنت أدعوها هي لتناول وجبة العشاء .

– هو سيد أخوك بياخد ماهيه كام يا شاكر ؟

– ما عرفش ..

– صرف كتير في المولد ؟

– مش كتير ولا حاجة ..

– المثل بيقول إن كنتوا أخوات اتحاسبوا، ولا رأيك إيه يا أم شاكر ؟

– اللي تشوفه .

– الواحد ما بياخدش منك عقاد نافع، انتي أمهم هما الاثنين واجب تكوني بينهم حكم عدل ..

كان من الواضح أنه يحاصرني لأتكلم، كنت خالية الذهن عن إحتمالات أن يفتح مثل هذا الموضوع أمام الولد والبنت بهذه الطريقة، كدت أكرر عليه ما قلته بالأمس "الولد دخل دارنا موظف وليته ما دخلها" لكنني منعت نفسي من الكلام وعلّام يكيدني بضحكاته وحكاياته عن خلق التقى بهم في الزمن القديم وكانت له معهم نوادر، وكان الولد يضحك والبنت تضحك وأنا أجاريهم وأضحك ربما لأبعده عن معاودة الأسئلة التي ليست لها أجوبة.

بعد العشاء قمت وتولّت سعاد ترتيب المكان، كنت وحيدة وخائفة، خائفة أن يفسد علّام علاقة الولدين، شاكر وحداني وقليل الحيلة، فرحته بوجود سيد أسعدتني وفرحة سيد بوجوده أراحتني، ربما يكون عند علّام حق في استفساراته، شاكر كفه مخروم وما في يده ليس ملكاً له، بارع في الإنفاق على من يستحق ومن لا يستحق، وربما مازلت عاجزة عن فهم سيد، وهل هو مثل حسن مستعد للتفريط في حقه كما جرى في الزمن القديم أم أنه ناصح لنفسه، وإذا كنت لم أفهمه وأنا أمه فكيف يطمئن إليه علّام ؟

***

بعد الصلح الكبير مع أولاد عوف راجت الأحوال، تنازلنا عن دم المنصور وتنازلوا عن دم علي عوف، جهز البك سالم كل شيء، حضر المأمور وابن الباشا الكبير مدير المديرية وحضر من ناحيتهم العمدة مصطفى عوف وعبدالقادر وحضر الجد هارون في آخر أيامه، كانت فرحة أبي لاتعادلها فرحة وكان يحاول في كل كلمة يقولها أن يؤكد لنا أنه لولاه ما تم صلح وما

هدأت الأحوال، عاملناهم وعاملونا، ردمنا على ما فات، تاجر أبي في القماش وأدخل إلى الكفر "بوابير الجاز" وكان يتندَّر على أهالي الكفر ممن يرونها لأول مرة بنارها الشديدة وصوتها القوي "يوشُّ" في الآذان مثل القطارات فيرمحون خوفاً ويحسبونها عفاريت طالعة من تحت الأرض، يخوّفهم أبي من انفجارها فيرمحون ويضحك، ومن جرأة البهنسي أنه وقف إلى جانب الوابور وقال أنه "مخاوي" من تحت الأرض وقلبه ميت فسماه أبي "البهنسي المخاوي" شغَّل الحاج مرسي وابور الطحين فأدهش الناس، استغنى الناس عن الطواحين القديمة التي تدوّرها المواشي، ولم يبطل اندهاشهم، أدخل عثمان المرسي أول ساقية صاج بتروس حديد على رأس غيطه فكانت مفخرة قلدها من بعده خلق كثار، شالوا توابيتهم القديمة بتروس الخشب وبدَّلوها بسواق من الصاج تنزح من الماء أضعاف ما ينزحه التابوت، واشترى أبي أول كلوب في الناحية فنوّر الدكان في عز الليل وكأننا في نور النهار، أبدل من يستطيع فانوس داره بكلوب "براتينه" من حرير لا تحرقه النار فكانت أعجوبة الأعاجيب، وتوّسع أبي فاشترى مندرة صالحة بنت حسنين السّاكت وضمّها إلى دكَّانه، تاجر في النقل والزبيب وجوز الهند وأبي الفرو وماترك شيئاً من البندر يحتاجه الخلق إلا وفّره لهم في الدكان لراحتهم كما كان يقول، زاد الخير فدخلت العمَّة فطوم شريكة له برأس المال، فتح عزّت شلبي خمّارة للقادرين تسهر حتى الفجر وجلب غازية ترقص للسكارى وتأخذ منهم "النقوط" ومن كثرة فلوس الناس لعبوا القمار يخسرون ويكسبون.

كانت أمي تكره عزّت كراهيتها للعمى "الحيسي" بسبب تلك الخمارة واجتلاب الغوازي والسماح لمن يدخلونها بلعب القمار، لكن تحذيراتها لأبي لم تغيّر من طباعه، كان إذا رجع مبكراً ليرضيها يخفي زجاجة في كمه، يناولها لي عند الباب لأخفيها في مكان وأقدمها له وقت الحاجة، وكثيراً ما كان يرجع فرحاناً من عند عزت، يفرغ جيوبه المملوءة بالجنيهات وأنصافها وأربعاها وعشرات القروش الورقية والفضية، يرصَّها وينظمها في صفوف ويربطها بأساتك ويضعها في خزانة الجدار ويقفل عليها بالمفتاح والقفل، يعدنا بأحسن الجهاز ولا تصدقه أمي :

– وايه اللي مانعك ؟ ما تصيّغهم وتشتري لكل واحدة شوارها من دلوقت، دانت عندك اتنين على وش جواز .

– أصل انتي هبله، القرش في إيد التاجر بيجيب قرش زيه، عايزاني أحط فلوسي في شوية دهب ونحاس من دلوقت ؟

كان يرد عليها متهرباً فتسكت عاجزة عن الاستمرار في معارضته وكان هو ينتحي ركنا بعيداً علامة الغضب، ربما يطلب الزجاجة ويشرب منها جرعات ويسدها ثم يتمدَّد مكانه دون أن يشعر به أحد، وذات مساء عاد محزوناً على غير عادته وسمعناها تتباكي وهي تلومه ربما في المرَّة الوحيدة التي جرؤت على توجيه اللوم له في كل حياتها معه :

– ياما قلت لك ياعبد الستار سكة القمار مكسبها خسارة، ما سمعتش الكلام، كده فطوم حاتتحكّم أكتر وأكتر .

وكلام كثير قالته ولم يرد .. من بعدها تغيرت عاداته ونادراً ما كان يتوجه لأمي بكلام، كثرت زيارات العمَّة فطوم لدارنا ونقصت البضاعة من الدكان.

بعدها فتح البكري مندرة دارهم ورصَّ فيها سراير الحديد بوصة إلا ربع وبوصة وبوصة ونصف يبيعها للأهالي مع طبالي العشاء والخبيز والحبال التيل ورءوس الفئوس وباكوات المعسل ثم أقماع السكر وبلاليص العسل وقراطيس الشاي، يبيع وتجارة أبي تبور، لكنها كانت أزمة زالت بمساعدة جديدة من العمَّة التي باعت أرضا زوَّد بها الحاج مرسي جنينة الموالح التي يملكها .

أيامها بنى الحاج مرسي أول دار بالطوب الأحمر في الكفر، عمل "أميمة" كبيرة رصَّ فيها الطوب صفوفاً صفوفاً بعلو دار وفيها فتحة في الجنب يشعلون فيها النار وأخرى لانراها يطلع منها الدخان، كنا نذهب للفرجة مع ناس الكفر ونراهم يضربون كفا بكف لأن الطوب الأخضر تلوَّن وازداد صلابة، وعند البناء لأول مرة على السكة الزراعية من ناحية المدافن غوَّط البناءون أساس الدار وركَّبوا مكان الباب البرّاني بوابة من حديد ملفوف دوائر ودهنوها باللون الأحمر فكانت داره مثل سراية الباشا الكبير في البندر وكانت جلسته مع أهله وأصحابه مطلا من شرفته العالية عزوة وقيمة لكل أهل الدرب، وربما بسبب هذه الدار نفسها لم يجرؤ أي واحد من الأهالي على ترشيح نفسه للعمادة ضده بعد موت الحاج مصطفى عمدة الكفر القديم

وتحوَّلت الدار إلى دوَّار وراحت أيام الجد هارون فما عاد أحد يسهر عنده كما كان من قبل بناية الدوَّار الجديد .

وكان موت الجد هارون في هذه الأيام من حسن طالعه فقد شاله الحاج مرسي "شيلة" عزيز مقتدر، عزانا فيه كل الأكابر، الباشا وأكبر أولاده والبك سالم ومأمور المركز ومندوب عن مدير المديرية وكل الأهالي من أولاد عوف وغيرهم جاءوا ليروا بأعينهم الفارق بين ليلة كبيرهم وكبيرنا، ذبح الحاج مرسي الذبائح ونوَّر بالكلوبات وأجَّر مقرئين من الإذاعة وما بخل بشيء حتى صارت ليلته سيرة الخلق في كل كفور الناحية ونجوعها الذين ما كفوا من يومها عن ذكرنا بكل خير .

***

جهَّزنا الزيارة ورحنا له أنا وشاكر وسعاد، دخلنا شقته في الحلمية الجديدة فما صدق عينيه، نسي أنني عشت في هذه المدينة زمنا قبل أن يولد، كان في الشقة سرير واحد وعدد من الكراسي الخيزران وترابيزة مفروشة بورقة وصفوف متراصة من الكتب في كل مكان .. على الأرض والأرفف المعلقة على الحيطان ولم يكن في مطبخه مواعين ولا صحون ولا أكواب تكفى أكثر من نفرين، وكان يبدو فرحاناً أكثر مما كنت أتوقع، تحيَّرنا في أي شيء نفرغ السلال فتركناها على حالها واكتفينا بإخراج ما هو ساخن مازال أو قابل للفساد، قلَّب شاكر في الأوراق ثم تركها دون إقتناع، وسألته عن الكتب المتراصة فضحك وحدثني عن أشياء ما سمعت بها قبلاً ولا انشغلت

بها، وهو يحدثني كانت تعجبني طريقته في الكلام، مجرَّد طريقته في الحماس للأشياء أو ضدها، حدثني عن الآثار التي يعمل مفتشا بها ووعدنا بزيارة للمتحف والأهرامات، كنت قد زرت الأهرامات في الزمن القديم لكنني لم أعترض حماسه، حدثني عن تاريخ قديم غير ذلك الذي حدثنا به الجد هارون، دهشت وأنا أسمع عن فراعين وقبط وعرب مسلمين، كنا في المدارس نقرأ القليل عن هذه الأشياء ونحفظ بعض الأسماء لنكتبها في الإمتحان لكنه كان يعرف الكثير يستشهد بالرسوم والكتابات القديمة للفراعين، تلك التي كان من الواضح أنه قادر على ترجمتها بيسر، وعندما ذهبنا إلى الأهرامات رأيتها معه بشكل مختلف، وفي المتحف رأينا تماثيل تشبه الرسوم في كتبه وهو لا يكف عن ذكر الحكايات التي نادراً ما كنا نسمع عنها وإن سمعنا فمجرد سماع إسم بشكل عابر في الراديو سرعان ما ننساه، حتى حديقة الحيوان معه كانت تختلف، بدا لي أنني كنت أزورها لأول مرة إلى حد أنني سألته إن كانوا قد أنشأوا واحدة جديدة مكان القديمة فأنكر وأكد أنها كانت منذ البداية في نفس المكان، ودخلنا سينما فيها فيلم عربي لعبد الحليم وشادية وأفرنجي فيه ضرب نار، ومسرح فيه ناس تتصايح وطوَّاف نحيل يلف بالخبز على البيوت أبكاني لأنه ظل حافيا يحلم بحذاء لم يملكه أبداً :

– نشتريله جزمة ياسيد يابني .. دا باين عليه غلبان .

ضحك وأشار إليّ بأن ألزم الصمت ففعلت، ولابد أنني بوجودي في الكفر لم أعد أعرف ما يجري في مصر من أفعال ولابد أن آخذ منه كتاباً وأحاول قراءته وفهم ما فيه من أسرار .

في اللَّيل قبل سفرنا كنا نتسامر، حدثته عن حكايات من تلك التي كان يحكيها الجد هارون عن الملك الشلبي فكان يتسمَّع بإهتمام ويستزيدني فأسترجع ما كدت أن أنساه وأقول وهو في سرحانه يتفكر ويبدي دهشته وكأنه ليس عارفا لأي شيء عن أهله من ناحية الأم، أغاظني جهله بحكايات الملك الشلبي التي لابد أنها مكتوبة في أوراق مثل هذه الأوراق المرصوصة كتباً لا حصر لها، سألته :

– معقوله ياسيد يابني ماتعرفش تاريخ جدَّك وانت بتاع آثارات ؟

ضحك قبل أن يطلب مني أن أحدثه عن الجد هارون، ذلك الذي سمع باسمه ولم يلتق به أبداً فحدَّثته، هز دماغه وسرح بعيداً ثم دمدم :

– شخصية غريبة جداً، جاب الكلام ده منين ؟

– قصدك إيه ؟ كان حافض زي ما أنت حافض كده .

– بس أنا حافض تاريخ مكتوب، إنما ده ..

– قصدك إيه ؟

قالها شاكر بعصبية وغيرة على الجد هارون فردَّ سيد :

– دا أكيد كان راجل عقله صاحي وقادر يخترع لنفسه تاريخ .. كلام يسلي بيه الناس .

– دا غلّ بقى ..

قالها شاكر وقد زادت عصبيته .

– غلّ ؟ من إيه ؟

– همَّا مش قالو لك إن عيلتنا خدت منكم العمودية وملكت أرض الزمام ؟ لأنهم ملوك وولاد ملوك.

– قالو لي .. بس دا مش معناه ..

لم يكمل عبارته ونظر إلى شاكر وكأنه يقيسه، كان شاكر في السنة الإعدادية للعام الثاني ما يزال، أصغر منه بعشر سنوات أو يزيد، حدّثني متهربا من الاستمرار في نفس الموضوع الذي تسبب في غضبة شاكر :

– نتكلم في موضوع غير ده .

لا أذكر أننا تكلمنا في الموضوع نفسه أو غيره، أذكر أن شاكرا كان يشعر بالضيق وكنت بدوري تائهة وعاجزة عن الاعتراض .

***

كنت أنتظر مجيئها على نار في أيام الأجازات، كنت أشعر بها وهي "تهرس" وسط الدار مرواحاً ومجيئاً، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام، أتسمَّع أنفاسها وأميزها وأنا بين النوم واليقظة، أقاوم فرحتي بوصولها وأتمطى قبل أن أتأكد، ربما أحس حركة أمي وهي تنزاح من تحت الغطاء "منسلَّة" في حذر فأعرف أنها بالفعل جاءت، أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج

من المندرة محمولاً بيد أمي، أسمع همسات العمَّة تحادثها بصوتها الخافت "المغلف" بخرخشات الصحو المبكر، أبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودها القصير الممتلىء ووجهها المستدير حازم التقاطيع، أتبعهما في صمت وأراها وهي تدس يمينها إلى ما فوق الكوع في حلوق الزلع، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير إلى أمي لكي تصب لها الماء من أبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائماً في ذيل جلباب أمي التي تقدمه إليها في حماس وهي تقترب منها أكثر، وتثبت في مكانها حتى تتركه العمَّة، بعدها تنظر في "براني" السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقي بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة لتدخل ونحن في إثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر بالخروج إلى وسط الدار في تلك الساعة البدرية التي تسبق طلوع الفجر، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل المصباح عن أمي حتى تدخل وتتناوله مني فأنزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفاً ويخوِّف، أتحاشى عضَّات ذكر الأوز العجوز وأنا أتابع مع أمي حركات العمَّة السريعة الواثقة وهي تتحسس بناني الحمام لتطمئن على الزغاليل، وهي تزيح في خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، أقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في إثر أخرى بين عينها وضوء المصباح، "تفرَّه" وتعيده إلى مكانه في دربه،

ترج بعض البيضات في حذر وتتسمَّع منها أصواتا قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لإحتضان البيض قبل أن يبرد، تشير إليّ فأخرج وأعود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من ذلك الحمل المحطوط على دكة النورج في وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل منها في حذر قبل أن تخرج بحرص أولاً ثم بإطمئنان وكثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة والأصغر، تمسك هي أرنباً كبيراً أو أرنبة وتحك بطرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرانب وتتجه نحو الباب وتخرج في خفة فلا يفلح طائر في النفاذ إلى الخارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدميّ أو جلباب أمي، تحكم هي إغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشبي إلى سطح "المقاعد" وتمد يدها في "زالوع" القمح، تطمئن على حجم المخزون وتخرج براحتها وفيها حفنة منه تتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصَّة عابرة كوم كيزان الذرة المحطوط جنب جدار الغباشي، تقشر كوزين أو أكثر من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقي بالكيزان إلى وسط الدار، تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمي فأحس قلقها وأسمعها تتودَّد إليها وتحذرها من الدرجة الأخيرة أو ذلك المسمار البارز مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو عليها أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من

مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارها نبي وأن بركاتها سوف تحل، وربما تعتذر لأننا أصبحنا نكلفها الجهد والمشقة، تهز رأسها وتفتح باب الزريبة، تتحسس في تؤدة ظهور العجول اللباني وعجول التسمين، ربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على "البذرة" أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوث وأمي تعتذر لها في حماس أو تتولى عني الإبريق وتصب لها قبل أن تناولها طرف ثوبها لتجفف يديها وتهمس في خجل :

– يادي الكسوف يا عمَّه، وبتعوصي ايدك اللي تتلف في حرير ؟

– دا معاش أخويا يا هبله، ح أتعب لمين أعز منه ؟

يشجع أمي ردَّها غير العصبي فتسألها بلهفة :

– حلوه البهايم يا عمَّه ؟

لا ترد عليها وتظل ماشية في طول وسط الدار وعرضها، تعدل طاجنا مقلوبا أو تحط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرني بحملها أمام الفرن، تلم كيزان الذرة التي ألقت بها قبلا وهي فوق السطح وتقوم بتفريطها في آلية وترمي الحبوب في الأركان، وقبل أن تخرج من باب "الخوخة" إلى صحن الدار البرَّانية تكون أمي قد أسرعت بفرش فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح في قعدتها بينما تتكوَّم أمي في إستكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذني هي إلى جوارها وتربت على ظهري في حنو، يتزايد القلق

على وجه أمي، تعض هي على طرف شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم في أمر لا تقبل فيه معارضة:

– دكر الوز خاب، ادبحوه واطلقوا دكرين من البطن البدرية .

– يندبح يا عمَّه حاضر .

– الأرانب ح يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش في القاعة وهاتوا لهم قزازة دوا من عند العطار .

– نجيب يا عمَّه .. حاضر .

– البطاطس تتبدَّر يا مريم لاجل مايطولهاش السوس .

– نبدَّرها يا عمَّه .. حاضر .

– والعجول دول تنصحوا لهم، انتو ح تربوهم ع التبن ؟

– بنرش لهم يا عمَّه فول ورده و....

– الكلام ده مش نافع، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص .

– ننصح يا عمَّه .. حاضر .

– زلعة الجبنه الكبيرة ملحها ناقص ليه ؟ ما تعرفيش تدوبي حفانين ملح رشيدي في طاجنين لبن رايب وتزوديها ؟ اللي ح تنقصيه منها حطيه في الزلعه أم ودن واحده، ناقصها مشّ يامريم .

– حاضر يا عمَّه .. حاضر نعمل كده .

– وسط دراكم مش نضيف، ح يجيب لكم الواغش، البنات بتعمل إيه طول النهار ؟

- باغلب معاهم يا عمَّه .

- معاشكم ح يخيب يامريم .

- دي البركه ح تحط يا عمَّه على ايديكي، سامعه ياشوق ؟

تقولها أمي وهي تنظر نحوي وكأنما تخفِّف عن نفسها ثقل المسئولية وترميها على أكتاف البنات فتحيط العمَّة أكتافي بذراعيها وكأنها تدافع عني:

- شوفي إنتي الثلاثة اللي راقدين جوه راقدين لدلوقت ليه ؟

تقول العمَّة وهي تعدل خصلة من شعر رأسي، أشعر بالفرح لكنني أحزن من أجل أمي التي تعجز عن المجادلة دائماً وتحط رأسها في الأرض وكأنها تلميذة غلطانة حطت وجهها في الحائط كما أمرها الأستاذ أو ناظر المدرسة لابس طربوش النسر .

***

دخلت العمَّة من باب الدار على غير توقع وعلَّام خلفها، كان سيد يجلس على طرف الدكة وصالح إلى جواره، كانت العمَّة تتحرك بعسر في اتجاههما وتتفحَّص الوجهين، اختارت سيد لتسأله أولاً من يكون فجاوبها ثم سألها بدوره من تكون بأدب لكنها لم ترد عليه، جلست بصعوبة على طرف الحصير المفروش واستندت إلى المسند وسيد ينتظر وربما يقدر كبر عمرها ويتعاطف معها، نظرت إلى صالح وسألته من يكون فحرك لسانه في أركان فمه وفتحه ولم يجاوب، بدا وكأنه يستهين بها وبسؤالها في نفس الوقت، كانت في نظراته كراهية لم يخلص منها، تطوَّع علَّام ورد على العمَّة :

- ده سي صالح ابن سي حسن برضه يا عمَّه .

– آه .. وايش جمع الشامي ع المغربي دلوقت ؟ .. يا حامي ..

انتفض صالح واقفا باحتجاج غاضب وهو ينظر ناحية العمَّة ثم إلى سيد الذي بدا له حائراً لا يعرف كيف يتصرف .

– قوم بينا يا أستاذ .

قام سيد نصف قومة لكن علَّام أفلح في إجلاسه مرة أخرى وإن فشل مع صالح، وبرغم كل ما سمعه ظل واقفا مكانه وفي عينيه غضب، كنت أراقب سيد الذي بدا لي غير قادر على فهم ما كان يدور حوله، حسم صالح أمر نفسه قائلاً :

– أنا ح اسبقه ع الدار ياست أم شاكر، إتهيألي مش ح يتوه ف الكفر، أوعاك تتوه ياسي سيد في بلد أبوك وجدك وجد جدك من قديم الأزل ..

خرج وسمعناه يتندَّر على ما قالته العمَّة بصوت مسموع :

– قال شامي ومغربي قال .. مين بقى الشامي ومين المغربي ؟

كان علَّام يدور بنظراته في كل الوجوه ويستجدى من يفاتحه في أي موضوع .. وعندما سيطر الصمت قطعه :

– أهلاً ياسي سيد .. حمقي قوي صالح أخوك .

تدخلت العمَّة :

– ح يتحمق علينا ليه ؟

ومرة أخرى ساد صمت، كنت أخاصم العمَّة ولا أرغب في مفاتحتها في الكلام رغم دخولها الدار مع علَّام، عندما جاءت سعاد من داخل الدار تحمل أكواب الشاي أدهشها وجود العمَّة ورحيل صالح الذي دخل دارنا لأول مرة مع سيد، ربما لكي يؤكد لي أنه يخصه أكثر مما يخصني، أو أنه أراد أن تكون المسألة مجرد تعريف بالمكان ورفقة عابرة لا تطول، كنت أريد أن أسأل سيد إن كان قد إلتقى به صدفة أو أنه طالع من داره إلى مكان فقام بتوصيله في سكَّته، لكن دخول العمه كهرب الجو في أعقاب دخولهما بدقائق لم يتم خلالها إعداد شاي التحية، كأن الجميع كانوا على موعد لتعكير الجو وسيادة الكدر، شيء ضيع فرحتي وجعلني لا أطمئن إلى إمكانية تكرار زيارته لي .

قطع علَّام الصمت الذي سيطر على الجميع بكلام غريب :

– الله يرحمه جدّك عبدالقادر كان حاجه تانيه، كان قد الدنيا ولا يغلطش في حد أبدا، إنما سي صالح ده زي ما يكون ما حدش مالي عينه، شوف إتحايلنا عليه قد إيه ؟ ودي أول مره يدخل دارنا.

– أنت صحيت لعبد القادر يا علَّام ؟

– خبر ايه يا عمَّه .. هو أنا صغير ؟

كان سيد يتابعهما بنظراته وكنت أشعر بالقلق لذلك الشكل من اللقاء الذي لا يتيح لي فرصة المشاركة، ويبدو أن سيد نفسه أدرك ذلك فالتفت إلى وابتسم قبل أن يسأل العمة متبسطاً :

– ما قلتليش لسه .. حضرتك تبقى مين ؟

– فطوم .. سمعت عن فطوم ؟

– كتير.

– قالولك عني إيه ؟

– أنا ح أستاذن .

قالها وهو يقوم من جلسته وعلى ثغره إبتسامة هادئة، مد يده وسلم على الجميع رغم اعتراضاتي واعتراضات علَّام، وعندما خرج كان كوب الشاي مكانه لم يمس وكان المشروب فيه قد فتر أو برد إلى حد يصعب على النفس أن تشرب منه جرعة .

***

في تلك الأمسيات كانت تبقى عندنا، وكان هو يقفل دكانه مبكراً ويعود حاملاً اللفافات الورقية، يناولها لأمي في زهو ويطلب منها أن تجهز العشاء تُجيب "بالحاضر" وتغطس مع البنات في وسط الدار، يجلس أبي إلى جوار العمَّة ويرحب بها في حماس قبل أن يسألها إن كانت راضية عن حال الدار متوجساً وتجاوبه :

– عاوزاك مستور قصاد العدو والحبيب يا عبدالستار .

– البركة فيكي يا فطوم .. لولاكي ..

– اسكت .

تقول محذرة فينظر ناحيتي ويسكت ثم يحادثها في أخبار الناس وما قد يكون قد جرى في الكفر من أحداث، يفتح لها سيرة الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة وتلك التي كفّ عن المتاجرة فيها، تحذره من القعاد في خمارة عزّت شلبي فيطرق في حيرة حتى تنحط طبلية العشاء وفوقها الصينية الكبيرة، يضع أمامها طبق "الزفر" الكبير ويهمس في تبسط :

– فرقيع العيال يا فطوم .

تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع، تبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

– اللي منابه صغير يقول .

لا يقول أينا شيئاً عن نصيبه، ربما لأن تلك الأمسيات التي كانت تشاركنا فيها وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفاً ونادراً ما كانت الواحدة منا تقدر على إكماله، ينتهي العشاء وتقدم أمي محتويات الأكياس التي جاء بها أبي من دكانه، أكثر ما كنت أحبه أن نتحلق في الشتاء حول راكية النار ونشوي "أبا الفرو" أسمع طقطقاته وأرى قشرته وهي تنفتح وأصبح من السهل الخلاص منها، وتلك الحلوى المخلوطة بالحمص والسمسم على هيئة أقراص وأصابع، كنا نشبع في تلك الأمسيات أكثر، وكانت هي تحكي تلك الحكايات التي لا تنتهي أبداً عن جدها الملك الشلبي الذي حكم الدنيا المسكونة زمناً، والذي كان يرسل في كل ركن من أركانها أميراً من نسله يحكم بالعدل ويحاسب الظالمين، تقول أن نسله كان كثيراً إلى درجة أنه كان لا يعرف له عدداً، وأنه

كان نسلاً من الرجال في أول الأمر حيث كانت كل خلفته صبياناً، وتؤكد العمَّة أنه برغم كل ما كان يملكه وكثرة خلفته يشعر بالحزن ويبكي، وعندما نسألها تقول إنه كان يشتاق إلى خلفة من البنات ويرى أن الدنيا ظلمته ولم يحقق فيها مرامه، يسألها أبي كيف؟ فتجاوب على الفور بأن الملك الشلبي كان يقول لأكبر أبنائه أن البنات جذور في الأرض يصعب إقتلاعها، وأن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، وتضيف وهي تنظر إلينا بحب أن البنت أم وماعون والولد ريح طيَّار صعب الإحتفاظ به، كنا نفرح بتلك الحكايات ونتباهى بأننا بنات، نفرح أكثر لأن الملك الشلبي خلَّف من البنات أضعاف خلفته من الأولاد، تسألها أمي بعد تردد عن أملاك الملك الشلبي فتبلع ريقها وتردّ بأنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة يملأ بها خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، أذكر أنها قالت عنه أو عن ملك من نسله أن قصره الكبير كله كان مبنيا بطوبة من الذهب وطوبة من الفضة، وكانت نصف ثياب بناته وحريمه من الحرير الهندي والتي لا تشبه ثياب الخلق في زماننا، تسألها نعمات بجرأة إن كانت واحدة من بنات بناته احتفظت بواحد من تلك الثياب، فتحكي أن جدتها احتفظت بواحد منها في صندوقها وهي في أرض البراري، وأنه حدث أن سطت على بيتها هناك عصابة من اللصوص وحملوا الصندوق بما يحويه فظهرت أمامهم وقايضتهم ببعض مصاغها من الذهب مقابل الصندوق، وأن اللصوص حسبوها امرأة بلهاء لأنها ضحَّت بالذهب مقابل بعض الثياب القديمة في صندوق لايساوي، لكنهم أدركوا الخدعة

عندما باعت جواهر الثوب المخبوءة في طيَّاته كل جوهرة بمال لا يقدَّر، ذلك أن الجواهر كانت مخفية بطريقة لا يعرف سرها إلا صاحبة الثوب بنفسها، تقول العمَّة إن جدتها تركت أرض البراري وجاءت لتشتري زمام الكفر من أولاد عوف الكبار ودفعت الثمن ذهباً خالصاً لكنهم بعد موتها أنكروا الأمر وعاركوا أولادها وأولاد أولادها، كنا نغضب من أولاد عوف ونود لو كنا رجالاً لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق وأخذوه بالقوة واستعادوه ظلماً، لكننا كنا نفيق على حقيقة كوننا بناتا والعمَّة نفسها امرأة لا تقوي على حرب الرجال، وأحياناً كانت العمَّة تنسى وتحدثنا عن اعتزاز جدها بذكورة نسله ويتباهى بهم قائلاً إن ذراع الولد سند وعون وسلاح وأنه بهم حكم الدنيا، وأن البنات همّ وعار إن غفل عنهم أو سرح بعيداً عن أرضه، وعلى المرأة أن تعوض ضعفها بالحيلة والدهاء، كنا نحتار في أمر الملك الشلبي، هل كان يحب خلفة الصبيان أكثر أم خلفة البنات، ونسألها عن بلده تلك التي تحكي عنها فتشرد بنظراتها إلى البعيد وتحكي عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر بلا قرار وعلى أطرافها صحراء ممتدة وبراري براح، تحكي عن مخاطر السكة إليها واستحالة الوصول إليها في الطرق المسكونة بالذئاب والثعالب والسباع، تحرص على أن تؤكد أن براري أرض الملك الشلبي غير تلك البراري التي جاءت منها جدتها التي اشترت زمام الكفر بالذهب وتلك التي يسكنها البك الشلبي، يبدو عليها التعب من كثرة الأسئلة وتتوه أحياناً بين الرغبة

في الاستمرار أو السكوت بعد أن تقول عبارتها التي اعتدنا سماعها في مثل هذه الحالات :

– وجعتوا دماغي بقى .

– احكي لكم عن عمتكم فطوم أيام زمان .

يتدخل أبي بحماس فنعرف أن دوره في الحكي قد جاء، كان يحكي عن صباها وشبابها الذي لم نشهده، وكيف أنها كانت بألف رجل، عن جمالها الساحر وفتنتها التي تسحر العابد، وكيف أنها مازالت قادرة على تعمير بيوت وتخريب دور الكارهين الظلمة إن فكروا في معاداتها مهما بدا للخلق أنهم أقوياء، وكان ينظر إلى كل واحدة منا ويباهي بأنها أخذت من العمَّة شيئاً :

– نعمات واخده منك النضافة يافطوم، شاطرة في الطبيخ والعجين والخبيز وكافة طلبات الدار .

– جواهر بنتي عزم وصحة، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حب ولا نعرف نترب لمواشي ولا نشيل سباخ .

– عطيات سهتانه وواعية ولا يفوتهاش فايت، القرش ع القرش وفي الحساب لبلب، بقول نمسّكها مصروف الدار من دلوقت هىء– هىء .

يضحك فتضحك، لا يقول عني شيئاً لأنها تسبقه، تحوطني بذراعيها كأنها تحميني من خطر لا أراه وتقول :

– شوق دي حته مني .

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، ألتصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذي تفكر هي فيه أن ترحل، تقف وتحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى بالمَلس وهم يطمئنونها بأن السهرة لم تبدأ دون جدوى، تخرج ويخرج أبي في أعقابها ليوصلها حتى تدخل دارها، وعندما يعود لاهثا يحدّث أمي بصوت خافت وكأنه يذيع سراً أعلنه على مسمع منا عشرات المرات وإن كان يخشى أن تسمعه الحيطان التي بها أذان مستورة لا نراها :

– دي رسمالنا دلوقت يا مريم، قرشها ف عبنا ولا لناش حد غيرها ..

– عارفه يا خويا .. عارفه .

– أوعى تزعليها يا مريم بكلمة كده ولا كده .

– يالهوي، دانا لجل خاطرك أحطها ف حبابي عنيه وأعمل لها خدي مداس .

– إن جرالها حاجة بعيد الشر كله ح يبقى للبنات .. فطوم مهياش هبله تضيع شقاها على حد غريب ..

– عارفه يا خويا .

– سايسيها يا مريم ولا ترديش عليها غير بكلمة نعم وحاضر .

– حاضر .

– البنت شوق تروح تبات معاها الليلة الجاية، تسليها .

– حاضر .. تروح .. وماله .

***

رأيته في المنام يوبخني، يخطف مصاغي ويرمح فوق سطوح الدور وقد خلص من عجزه وقام، يدخل خمارة عزّت شلبي ويلعب بالورق وأنا أرمح لأخلص ذهبي من بين أصابعه، يقامرني رغماً عن إرادتي فألاعبه "الكومي" وأخسر، أبكي وأتضرع له أن يعيد إليّ مالي المخطوف ويعاندني، يعايرني بخلفتي الأولى ويهددني بخطف الولد الثاني إن ظللت أبكي، أسعى لأمي وأحيلها عليه ترجوه حينا وأرجوه حينا، وهو يتضاحك فرحانا لأنه امتلك، استعاد ماله الضائع بمالي وحوَّط عليه في مقبرة، أمشي سكة المدافن وقد فشلت، أتباكى مع أمي، أقول لها إنه لو كان أبي ما خرب حياتي مرتين فتواسيني وتمزق ثوبها فأداري عريها بشالي وأظل أبكي وأبكي وأدعو عليه وقد نالني التعب، أستند على جذع نخلة فأراه على مقربة مني يكيدني ويزوْد همي وعلَّام واقف وقد احمرت عيناه يسألني عن ماله الذي أضاعه أبي، يجف ريقي من كثرة النداء ولا يرد وأقوم مفزوعة أصرخ طلباً لجرعة ماء .

***

كانت تكره في السابق خلفة البنات، قال أبي أنها أشارت عليه ليتزوج أخرى تنجب الولد وأنه طاوعها وهجر أمي لسبع سنوات وادعى أنها انقطعت خلفتها، ولما طالت عشرة الأخرى التي لم نرها ولم تنجب لا بنت ولا ولد أشارت عليه ليجرب مرة أخرى فلم يوافقها، هل قال أنه طلق الأخرى أو أنها ماتت بحسرة؟ تاهت من ذاكرتي حكاياته القليلة عنها وما

تبقى غير مرارته عندما كان يحكي عن خصام العمَّة له زمنا، كان يحرص على أن يقول لنا :

– فطوم كانت عايزه مصلحتي يا ولاد، وكل شيء نصيب .

يسكت فترة ثم يقول :

– صعبت عليا العشرة معاكي يامريم، أهو لو ماكانش حصل اللي حصل ماكناش شفنا عطيات ولا شوق .

كانت أمي تغصب على روحها وتبدي أنها سامحتها من زمن، تحسب أنها ترضيه وكلنا يعرف أنها ما سامحت ولا غفرت لها أبداً، صحيح أنها كانت تطاوع وتمتدح وتقبل كل ما تشير به العمَّة دون اعتراض تنفيذا لوصاياه، وكنت أنتظر منها أن تعترض مرة أو ترفض أو حتى تثور في وجهها لكنها لم تفعل أبداً، ظللت أنتظر دون جدوى، وكنت أغتاظ منها عندما تقبل منها محاولات الإذلال وتسكت فأوشك أن أطالبها بعدم السكوت ولا أجرؤ، ما كان يزوّد وجعي من ناحيتها أنها كانت تضعني وأنا إبنتها في صف العمَّة، سمعتها بنفسي تحذر البنات بصوتها المهموس المحاذر :

– شوق دي عيّله ما تعرفش، ما حدش منكم يغلط قصادها بكلمة لا تنقلها لها، ياما نفسي أشوف فيكي يوم يا فطوم يا بنت بهانه، سبحانك يا خلَّاف الظنون، أهي لا طالت ولد ولا بنت، اتفرعنت بالكلام وبس، عاشت وبكره تموت وهي بتتمنى ضوفر عيّله عميا ولا هياش ح تطول .

عندما أحسّت أمي بوقع خطواتي بان في عينيها الفزع وكأنني هم الموت نزل عليها على غير توقع، وسرعان ما غيَّرت نبرات صوتها وتعمَّدت أن تسمعني :

– عمتكم فطوم يابنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالها، شملوله وكلمتها صايبة، بس يا خسارة ...

جلست إلى جوار نعمات وكأنني أحتمي بها من ظنون أمي التي أجبرت نفسها على الكذب خوفاً مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، وعندما تحسَّست نعمات ظهري في حنو وكأنها تواسيني انفتحت في البكاء بحرقة، سألتني أمي والبنات عن السبب قلت أن كلاب "الواطية" طاردتني وأنا راجعة وخوَّفتني، كنت بالفعل خائفة لكنني أيضاً كنت غاضبة لأنني عجزت عن تخليص الصدق من الكذب، ربما كنت أرغب في البوح بأسباب بكائي ولا أستطيع .

في الليل جلست مع البنات وهنَّ يستعدن ما جرى للعمَّة التي مازالت أمي تريد أن ترى فيها يوماً أكثر مما رأت، كانت قد تعذبت في الدنيا دون ذنب، دارت على الحكماء والمشايخ والأولياء سعياً وراء الحلم في الإنجاب دون فائدة، لم تسمع عن شيخ إلا وزارته، ودفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بلا جدوى، راحت لحكيم البندر وحكيم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوباً ولبوساً وشراباً مراً مثل العلقم كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء ولم ينفع، تمرَّغت أمام أمي والبنات في

حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة، حطَّت بدنها بين قضبان قطار مرّ فوقها وشيَّب خصلة من شعر رأسها، كنست مقام سيدي الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزّعت عليهم مقاطع القماش عشرات المرَّات، دقت مسماراً في لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة اليتيمة، رشت ماء الورد وماء الزهر على مدفن نصراني أسلم في الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امرأة عاقر لم تنجب، ظلّت تحنو على أطفال الناس وتملأ بهم دارها، تطعمهم وتسقيهم السكر المبلول، استخدمت صوفة وعرَّت جسمها لبدر التمام، شاف فيها أهل الكفر أياماً لكن أمي لم تشبع، كانت تعايرها من بعيد لبعيد بوحدتها وهي تتكلم عن خلفة الأخريات، وحدثتها مرَّة بنغمة إنكار عن أحد أزواجها السابقين وكأنها تريد أن تؤكد تصديقها لما سمعته عنه :

– الخلق في كفرنا بيولّدوا البغلة، قال إيه يا عمَّه شافوا المخفي درويش شلبي في البراري ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، مش كان كشف والحكيم قال إن مالوش في الخلفة زمان وانتي وياه ؟.

شردت هي لحظات، علَّها تذكَّرت خلالها الرجل الذي عاشرته زمناً مثلما عاشرت غيره بلا ثمرة، لم تستنكر الخبر ولم تسلّم بصدق حدوثه :

– كل حي بياخد نصيبه يامريم، أهو كلام وربنا يسهل لعبيده .

ليلتها أخذتني معها كما كانت تفعل فتحمّيني وتمشّط شعري وتلبسني ثوباً جديداً تكون قد اشترته لي وحفظته في صندوقها، تطعمني من سد الحنك وتحدثني عن أشياء لا أعرفها وتجاوبني مهما كثرت أسئلتي، لا تشكو

من وجع الرأس أبداً، تجعلني أتمدَّد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتني في حضنها، وعندما أتقلب تجذبني مرة أخرى إلى صدرها الناعم وتقبلني لأطمئن ثم تهمس لي وقد أسبلت عينيها :

– قولي لي يا أمه .

أقول فتشدني إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، ينكتم نفسي عندما يندفس فمي وأنفي في لحم صدرها الطري، أعجز عن تخليص روحي وأشعر بيد الحاج فرج وهي ترخي يدها التي تحيط برأسي وهو يهمس معتذراً لها وخائفاً عليّ :

– على مهلك يافطوم .

تخفّف من مسكتها وتربت على ظهري فأنام وأصحو، أشعر بقطرات من عرقها الدافىء تتساقط على شعري ووجهي، أسمع همسها فحيحا لاهثا لا يشبه صوتها المألوف :

– قولي لي يابت .. قولي لي يامه .

تكررها عشرات المرّات فأناديها بأمي وهي لا تكف عن الرجاء، كأنما لا تسمع صوتي، يسكن بدنها بعد انتفاضة يسيرة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمسح الحاج فرج قطرات العرق عن وجهها ورقبتها، ربما يحملني إلى مؤخرة السرير العريض، وربما أشعر به يغطّيها ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعد الفجر بساعة فأراها تبتسم لي

وقد استحمت وابيضَّت أكثر في قميص جديد لم أشهده قبلاً، لا تلومني على الصحو المتأخر في تلك الأيام، وربما تطالبني بمعاودة النوم في حضنها فأنام وأنعم برطوبة البدن المستحم .

***

دخلت عنايات بنت أم بكري من باب المندرة مدفوعة على غير عادتها، كانت تنهج وتلتقط أنفاسها بعسر وتدور بعينيها في تردد، كأنما فاجأها أن ترى علَّام، انطفأ حماسها وكادت تخرج وهي تتلعثم في كلماتها :

– كنت فاكراكي لوحدك ..

ناديتها وناداها علَّام فوقفت عند الباب حائرة ومتردّدة، شجعها علَّام لتتخلص من ارتباكها عندما رأته :

– مالك يابت، متبرجلة كده ليه؟ البلد نزلها مفتشين التموين ولا انحطت عليها داهيه ؟

– لأ .. مفيش .. أصل ..

قلت اطمئنها :

– اقعدي ياعنايات وخدي نفسك، حصل إيه ؟

– أصل فيه ضيف عايزك انتي .. ف دار أبوكي .

تبادلت نظرة مندهشة مع علَّام، أي ضيف ؟ وفي دار أبي التي لا أدخلها بأمر علَّام، لو كان من الكفر لجاء إلى هنا فالكل يعرفون، لابد أنه غريب..

ولابد أنني كنت قد أوشكت على لومها لأنها تعرف فبادرت تدافع عن نفسها :

– ما أنا عارفه انك مابتروحيش هناك، بس هو محكّم دماغه، أهو مستنيكي هناك .

– وده مين بقى النبي حارسه اللي محكّم دماغه كمان ؟

قلت بإنكار وأنا أرقبها وأتشكك في وعيها فردَّت دفعة واحدة لتخلص نفسها من الموضوع :

– سيد .. سيد ابنك .. دا بسم الله ماشاء الله بقى راجل، طول وعرض وعليه القيمة، قلتي ايه ؟

لم تنتظر جوابي وتسللت من المكان كأنما تهرب من النظرات والموقف الذي لا تملك فيه حق إبداء الرأي .. "وما على الرسول إلا البلاغ" كما يقولون، نظرت إلى علَّام فوجدته مطرقاً وكأن الأمر لا يعنيه أو يعنيه إلى درجة أنه ينتظر مني أن أسأله السماح لي بأن أذهب إلى دار أبي تلك التي امتنعت عن الذهاب إليها تنفيذاً لإرادته، رفع رأسه في تكاسل ونظر إلى ملياً، لعله أراد أن يتكلم ثم تراجع :

– ح نعمل إيه ؟

سألته بحذر فرد :

– كيفك .

كانت قد مرَّت سنة أو يزيد منذ تعارك مع أمي بسبب رغبته في أخذ جزء من الدار يوسع بها دكانه ويعمل فيها مخزناً للبضائع سداداً لبعض دين أبي القديم لكنها لم توافق، طالبها بميراثي فامتنعت، تمنى لها الموت وتطاول عليها فلم تسكت، انقطع بينهما حبل الوداد تماماً وكان الاختيار أمامي، إما أن أخرب علي روحي من أجلها أو أميل مع الريح حتى تهدأ الزوبعة وترجع المياه إلى مجاريها، وقد أراحتني هي عندما بعثت عنايات لتسر إليّ على لسانها عبارة واحدة مازلت أذكرها :

– دارك وعيالك أولى بيكي .

ربما كانت وصيتها قد جاءت على راحتي فهززت رأسي علامة الموافقة، أصبح من المألوف أن ألقاها في دور الغرباء، أم بكري أو واصفه أو النبوية أو أي واحدة من دور الدرب، قطع عليَّ صمتي بعبارته :

– مستنيه إيه؟ قومي البسي .

تردَّدت فأصر فقمت، أخذت سعاد معي وسمعته يقول مودعاً .

– ح احصلك .

كنت بين مصدق ومكذب والبنت تسبقني فأستمهلها حتى وصلنا إلى باب الدار المفتوح، رأيته واقفاً قبالتي وأمي تتنفس بارتياح وهي تنظر ناحيتي :

– أهي جت .

واجهني الولد الذي أخذوه مني وغاب أو غيبوه، كان يتأملني وأتأمله في صمت، وجهه الباسم يداري حزناً مدفوناً خلف تقاطيعه، والعود فارع وصلب يسكنه جرح نزف على امتداد عمره، هل بكيت أولاً أم أن عينيه دمعتا قبلي ؟ لا أذكر، أذكر أنني أخذته في حضني بفرح وتحسست بدنه وأنا أتذكر قطعة اللحم الطري الصارخ يوم أخذوه مني آخر مرة، ربما أكون عاتبته على اختيار مكان اللقاء في هذه الدار الخراب واحتجَّت أمي، وربما تكلم هو عن أصول يرعاها فلم أعلق على كلامه، رحت أتامله ويتأملني قبل أن ألومه لأنني سمعت أنه ذهب مرة إلى دار صالح ولم يفكر في زيارتي، لعله شعر بالخجل فدافعت عنه أمي :

– كان جاي مع أبوه يعزّوا في ابن عم أبوه .

نظر إلى سعاد وسألها :

– في سنه كام ؟

– سنه رابعه ..

لم يعلق .. دخل علَّام سلّم بحرارة أراحتني وهو يتمتم :

– ماشاء الله .

تبسَّط علَّام ووجه الحديث لأمي فردت عليه بنفس البساطة وقلت لنفس هي بشرة خير أن يصالحها يوم زيارة سيد، سأله علام عن مدرسته فضحك وأوضح أنه أنهى دراسته في الجامعة منذ عامين وأنه موظف، سأله عن مكان

عمله وعنوانه فكتب له كل شيء، كان من الواضح أنه لا يعرف علَّام وينياديه أو يرد عليه قائلاً له :

– ياحاج .

– حاج إيه ؟ انت مش عارفني ؟ اعتبرني خالك علَّام بلاش جوز أمك .. طيب بلاش دي، مش كان يصح برضه تروح لأمك دارها ؟

– أصل ..

– أصل إيه وفصل إيه يابني .. داحنا قبل كل شيء أهل، قومي ياست أم شاكر واسبقينا ع الدار، عاوزين نتغدى غدوه حلوه من ايديكي، ح نحصلك .

أذكر أنني قمت وانتظرت ساعة ولم يحضر سيد أو علَّام ولا بعثوا لي مرسالا يعفيني من الانشغال بغداء لم يكن له منه نصيب .

***

اعتدنا من جواهر أن تجلس وحيدة على أول درجات السلم أو على "الحصير" أو في صحن الدار، حافية القدمين غالباً وثوبها متَّسخ بالأوحال والروث، ونادراً ما كانت تشاركنا جلساتنا اللّيلية في المندرة أو القاعة، يتذكرونها عندما يحتاجون إليها فينادون أو يبعثون إليها لتجيء تطلب منها أمي أن تملأ الزير من ماء الترعة أو تأمرها نعمات بغسيل الحبوب فيها، يطلب منها أبي تتريب الزريبة فتهز رأسها علامة الموافقة وتبدأ العمل، تغطس في

وسط الدار أو تنزرع في داخل الزريبة لساعات وساعات تفرش الرماد تحت حوافر العجول والجاموسة "الحلابة" وتكوم "السبخ" في ركن حتى يدخل ابن الزناتي بالحمير ويقوم بتحميله ونقله إلى الغيط، ربما يفوت موعد الغداء أو العشاء وهي في الداخل دون أن يذكرها أحد وعندما يتذكرونها يتحدثون عن التعب الذي لابد وأنها به شعرت والشقاء الذي احتملته دون اعتراض أو شكاية، كانت تأتي من الداخل تنفيذا لطلب أو ردا على نداء بثوبها الذي شمَّرته وجعلته مربوطا إلى وسطها والعرق ينزَّ من عنقها ولو كنا في عز الشتاء، يطالبونها بأن ترتاح وتكف عن الشغل فتكف، تجلس في أحد الأركان في هدوء وتبدو للصغير والكبير جاهزة لتلقى الأوامر وتنفيذها دون مناقشة مفصولة عن أهل الدار وكأنها ليست من لحمنا ودمنا، كانت تبدو لي غريبة بالفعل عنَّا، غريبة ومختلفة بشكل ملحوظ، ونادراً ما كانت تستحم دون عراك مع أمي أو العمَّة أو حتى نعمات التي كانت تعايرها بعفونة ثيابها والكسل، لا أذكر أنها لبست أمامي ثوباً جديداً يخصها، ربما كان "الخليع" أو ما تستغني عنه أمي أو تخلعه نعمات هو كل كسوتها، وربما كان أبي مسئولاً عن ذلك لأنه قبل دخول الأعياد ومواسم الكساء كان يطيب له أن يرتّب الأمر معنا، يتحدث عن نواياه وعدد الأمتار التي سوف يأتي بها لكل واحدة، كان يذكرنا جميعاً وينساها حتى عندما تنبهه العمَّة أو أمي بجواهر يداري خجله بعبارة حفظناها وتندَّرنا بها من كثرة تكرارها :

– وهو معقول أنسى جواهر ؟ دي جواهر .

لكنه كثيراً ما كان ينساها أو يتناساها، يتصادف أن تكون معنا بدعوة من الكبار لترى قطع القماش وألوانها ولمن اختارها أبي، ونادراً ما كان يظهر لنا أن لجواهر نصيباً مثلنا، حتى لو لامته العمَّة يضحك وهو ينظر إلى جواهر ويقول :

– أصل جواهر دي عاقلة، هي اللي فيهم، ماهيش بتاعة كلام فارغ من ده تلبس من هدوم أمها أو هدوم نعمات، مش كده ياجواهر ؟ قلبها على أبوها وعايزه توفر له .

يقول ويضحك وربما نجاريه ونضحك فتضحك ولا تبدي أي إعتراض أو إحتجاج حتى نوشك أن نصدق أنها بالفعل الوحيدة العاقلة بيننا، لكنها في الحالات النادرة والتي يقدم لها أبي قطعة من القماش تخصَّها، كانت تقلّب طرف القماش بين أصابعها بفرح وتسأل الجميع إن كان لونها يليق بها وتتلقى الأجوبة، تبدو سعيدة ومنشرحة لساعة أو ساعتين ثم تشير إلى نعمات أن تقترب منها لترجوها وهي تحوطها بين يديها وكأنها تستجديها :

– ياريت تفصليها عليكي .

كانت نعمات لا تعترض لأنها تفعل نفس الشيء في ثياب أمي التي تفصّلها على مقاسها، الفارق الوحيد هو أن أمي كانت تأخذ ثيابها الجديدة بعد تفصيلها وتجريبها على نعمات، أما جواهر فكانت تنظر إلى نعمات وهي تقيس ثوبها الجديد ثم تقول لنفسها :

– حلو عليها خالص .

وبعدها توجه كلامها لنعمات :

– مبروك عليكي .. أنا وأنت واحد .

ومهما حاولت نعمات إفهامها أن لديها ثياباً جديدة لا تقبل أخذ الثوب منها أبداً، قد تترك المكان إلى وسط الدار فراراً من الإلحاح أو تطلب من نعمات البديل من الثياب القديمة :

– إبقى إديني بداله القميص أبو ورده زرقه .

كانوا يتبادلون النظرات ويؤكدون أن هذه البنت فيها شيء لله وزاهدة في الدنيا، كنت أشعر بالخوف منها في بعض الأحيان، تطمئنني نعمات وهي تسخر منها بجرأة :

– دي عبيطة ومعفّنه وتلاقي القمل بيشغي في رأسها من كتر الوساخة .

كنت أصدق كلام نعمات وأتخيل أن رأس جواهر المربوط دائماً بالمنديل والذي نادراً ما تحل ضفائره لابد وأن يكون فيه قمل، حتى يجبرونها على الاستحمام أو غسيل رأسها تحت الطلمبة فأرى شعرها المحلول طويلاً وناعماً وغزيراً وهم متحمسون في تمشيطه بحثاً عن حشرة واحدة ولا يجدون، لا تغضب منهم مهما قالوا عنها، وتقوم بكل الأعمال الصعبة في الدار، تحمل قفف القمح المغسول والذرة وتطلع بها إلى السطوح، تفرشها على الملاءات والأحرمة والحصر حتى تنشف في الشمس قبل النقاوة والطحين

تقوم بتنزيلها وتنتظر حتى تنقي القمح من الحصو والدحريج لكي تحملها قفة وراء قفة إلى الطاحونة عدة مرَّات، تطحنها وتعود بها دقيقاً ناعماً وقد تعفَّرت، كنت أذهب معها أحياناً فأراها وهي تهبد فتحة الطاحونة الصاج براحتيها بعنف وقوة لينزل كل دقيقنا من الفتحة ولا يتبقى منه شيء مركون في "القادوس"، كانت أمي ترضيها يوم الطحين بعبارة لا تتغير :

– آخرتك ح تبقى بيضه زي الدقيق العلامه .

تفرح جواهر وتبدو كما لو أنها لم تتعب طوال النهار، وكثيراً ما كانت تتطوَّع في الصَّباح التالي بتجميع روث البهائم في حفرة وتضيف له نخالة التبن الناعمة وتهرسه بقدميها هرساً متواصلاً، وربما في الليل ترصه أقراصاً جديدة فوق القديمة أو في فراغات السطح وتهمس للأم بأنها جهَّزت للخبيز وقوده فتدعو لها بالستر وعدم الفضيحة .

وكانت هي الوحيدة التي تجرؤ على ربط العجول المحلولة في حلقاتها إذا انفكَّت حبالها، حتى أبى لم يكن يعرف كيف يقود عجلاً معلوفاً أو يسايسه كما كانت تفعل، بارعة في سقاية المواشي وتقديم العلف لها في الأوقات المناسبة، وكم وعدها أبي بمكافأة نظير جهدها في الدار ونادراً ما كان ينفذ أو يوفي لها وعده، كان يكفيها سماع كلمة طيبة منه أو ربتة على كتفها .

وعندما كنا نجتمع ساعة العشاء في المواسم كانت تأتي تنفيذا لاستدعائهم، تجلس على مقربة من الطبلية عند طرف الحصير وتمد يدها برغيف جاف لتضع لها أمي نصيبها من الغموس أو "الزفر"، وفي كل مرة كانت تتعلَّل بأن

ثوبها ليس نظيفاً أو أن قدميها قذرتان أو أن يديها متَّسختان، كانت تأخذ نصيبها المقسوم وتغطس في وسط الدار، ربما تبلعه بلعاً أو تداريه في مكان، لكنها تعود بسرعة وتجلس في انتظار انتهائنا من العشاء لتتولى حمل الطبلية وصينية العشاء، كان أبي يتابعها بنظراته عندما تترك المكان ذاهبة إلى وسط الدار وهي تحمل ما نابها ويحدثنا بحماس الواثق :

– أقطع دراعي إن ما كانتشى البنت دي مخاوية جنّي من تحت الأرض .

وربما قبل أن يكمل عبارته تكون جواهر قد عادت ووقفت أمامنا فأشعر بشيء من الخوف منها والرهبة، وربما كنت في الصباح التالي أتودَّد إليها وأحاول أن أرضيها بعبارة تدل على الحب، وفي كل مرّة كانت ترد على من يسألها إن كانت قد أكلت نصيبها قائلة :

– مقطوع منه النصيب، كلته القطط والكلاب .

وكنت أتشكك وأقول لنفسي إنها أكلته بمشاركة الجنّي بعد رقادنا، وربما لأنني لم أشعر ولو مرة واحدة أنها أحست بالندم لفقدان نصيبها، بل العكس يحدث، كانت تبدو وكأنها أدَّت واجباً مفروضاً نحو تلك القطط والكلاب التي تتحدَّث عنها وأمي تعلق وهي توشك على الانفجار غيظاً :

– أنا طهقت م الكلام معاكي، خلصت من ذنبك، كنتي دافساه ف وسط الدار يعمل إيه ؟ وماتتعشيش ف وسطنا ليه ؟..

ولا يبدو على جواهر أنها تأثرت بالكلام مرَّة أو فكرت في تغيير عادتها، كانت تتركها وتدخل إلى وسط الدار، تجلس على أول درجات السلّم وتضع خدَّها على راحتها وتتوه عن دنيانا، تدخل دنيا غير الدنيا، ومهما حاولنا الكلام معها أو التخفيف من وحدتها لا ترد، نتركها وننساها وربما تبقى في وسط الدار يوماً أو يومين لا نسمع لها صوتاً قبل أن نفاجأ بها تسب ابن الزناتي شيَّال "السباخ" لأي سبب من الأسباب، وهكذا دائماً كانت موجودة بيننا وغائبة عنا حتى حدث ما حدث عندما عدنا إلى الكفر في عصر ذلك اليوم بصعوبة من مدرسة البندر، وكان المطر قد حوَّل السكة الزراعية إلى وحل طري أملس، سقطنا فيه أنا وعطيات أكثر من مرَّة واتَّسخت ملابسنا الجديدة، كنَّا نرتجف ورخَّات المطر تتساقط فوق رأسينا، دخلنا الدرب الساكت وقد خلا على غير عادته من الناس، لكننا وجدنا زحاماً عند باب دارنا عندما انحرفنا في الزقاق، كانت الدار نفسها مزحومة بالرجال والنساء والأولاد وأمي تلبس السواد وإلى جوارها أم بكري وأبي هناك عند باب المندرة وسط رجال العائلة وبينهم تقف العمَّة محاطة بهم وعيناها زائغتان وغائبتان إلى درجة أنها لم تلتفت إلينا أو تحدثنا، كان هناك همس وصخب ودمدمة وصراخ مكتوم في حلوق النسوة، جاءت نعمات وأخذتنا من وسط الزحام، لم نسمع ما قالته وإن كنا أطعناها وطلعنا معها إلى المقعد الشرقي، طلبت منا أن نخلع ثيابنا المبلولة ونبدّلها بجلابيب البيت ففعلنا، سألتها عطيات عن سر الزحام واللَّمة فحاولت أن تداري لكنها لم تستطع، قالت من بين نشيجها المكتوم :

– أختكم جواهر، الديب قتلها، نمط في وسط الدار وكلها، كانت بايته في الخلا والديب طالها، كفّنوها ودفنوها وانتو ف المدرسة، سنة سودة السنة دي .

أوشكت أن أصرخ فحطَّت هي كفَّها اليمنى على فمي وطالبتني وعطيات بعدم الصراخ أو مجرد البكاء بصوت محذرة :

– ما حدش منكم يفتح حنكه، إحنا لنا عدوّين ف الكفر، ونهار الحكومة ما تشم خبر ح يطلعوها م التربة وياخدوا أبوكم يحبسوه ومش بعيد ينشنق.

أصابني خرس مرعوب والحزن العاجز يغزوني لأول مرة في حياتي، كانت هناك فجيعة في أخت دفنوها في غيبتنا وكانت في الليل معنا، وقلق مجهول على أب مهدد بحبس أو شنق دون ذنب، وخوف مبهم من ذئب جسور يتخطى كل الجدران ويقتل، ربما من كثرة الرعب نمت وأفقت على تلك الحقيقة الجديدة وهي أن جواهر ليست في وسط الدار .

كنا في الأيام التالية نتخوَّف من وسط الدار وصحنها، حتى نعمات وأمي وأبي والعمَّة كانوا يتهربون من الدخول لسقاية المواشي أو تقديم العلف لها، وكان البكري هو الذي تطوَّع بتأدية هذا الواجب الصعب أياماً .

وفي المدرسة تحدَّثنا للبنات عما جرى فووجهنا بحكايات خسيسة عن إبن الزناتي وتدبيرات العمَّة ومقتل البنت في المتبن وسر اختفاء ابن الزناتي نفسه من الكفر في نفس التوقيت "ولو كان لابن الزناتي أهل لأبلغوا الحكومة

وأخذوا قاتله بدمه .. ولو كان للذئب البريء من دم البنت الفسدانة صاحب لدافع عنه بأعلى صوت في دروب الكفر الذي يعرف كل ناسه ويكفون على الخبر ماجور".

قلنا لنعمات فأمرتنا بأن نكف عن ترديد هذا الكلام الفارغ مرّة أخرى، شتمت البنات قليلات الحياء ممن يجرؤن على نقل مثل هذا الكلام الفارغ والفاجر عن بنات الناس الطيبة بهدف خراب البيوت العمرانة، بعدها اعتدنا السماع دون رد أو فتح السيرة لنعمات أو غيرها من الكبار، وما عدنا نتجاسر على ذكر اسم جواهر في حضورهم، تماماً مثلما كانوا يفعلون .

***

شاكر وجع قلبي وحيَّرني في أمره خاب في المدارس سنة بعد سنة، جرَّبنا معه كل الطرق، نقلناه من مدرسة إلى مدرسة، اكترينا له الأساتذة بأجر فما استجاب، زوَّدنا مصروفه ومنعناه، سلَّمناه الدكان في أجازة الصيف فما باع بضاعته الرائجة بسبب لسانه المفلوت وما احتاط لقرش ولا صرف في المفيد، عجينة فسدانة استعصت على التشكيل، وفي كل مرَّة كان علَّام يلومني ويعايرني ناسياً أنه بذرته وقطعة منه، بطريقته يمشي ويتكلم "أنت مفسدته وهو عملك، عملك الرديء" يقولها علَّام فيشعل في قلبي ناراً ويزوّد فيه المرار، فرحته بخلفته زادت عن حدّها المعقول، كان يأخذه معه في كل مكان وهو صبي ما زال يسهر به وسط مساطيل الكفر والكفور المجاورة، ويصاحب أولاد الليل وخبَّاصين الناحية، لا أدب عندهم ولا حياء، وكلما

اعترضت عارضني:

– مالكيش دعوه بيه، خليه يعرف الدنيا على حقيقتها .

في السابق كنت أقول لنفسي لا بأس، أن يزرع فيه طباع الرجل رجاء أتمناه، حتى عندما كان يتطاول بلسانه في الرد عليّ كنت أتسامح، أعفو عنه إذا ضرب البنت، وكنت أرى فيه الأخ الذي حُرمنا من وجوده وانكسرت نفوسنا لأننا لم نحصل عليه أبداً، أداديه كرجل ينمو ويغلظ صوته، وأطيب خواطر البنات الشاكيات من مشاكساته بالفعل أو باللسان، أتخيله رجلاً وأستعجل دورة الأيام والسنين، لكنني أفقت من خدر الأمنيات ليلة أن بلغني أنه جالس رجال السيد الدبَّاغ في البندر في قعدة حشيش يدخنون على حسابه، ما خوَّفني غير استغلاله في دفع الثمن هو إحتمالات إفساده في أمور لا أعرفها، أولاد الدبَّاغين شهرتهم في الفساد والإفساد لا تقف عند حدود، تجارة مخدرات وتقليع زرع وسمْ مواشي وتأجير لقتل الخصوم وخطف بنات وتخريب دور، يفعلون كل المصائب ولا يهابون حبساً ولا حكومة والولد مجرد تلميذ في الإعدادية فهل يطمئن عليه قلب الأم ؟ ليلتها فاتحت علَّام وحذَّرته من الخطر، لم يوقفني ما كان يتهمني به :

– كله منك، دلعتيه لحد ما خاب، والخلق دول مالهمش أمان، خايف يكونوا متأجرين عليه .

ولأول مرَّة تمتد يده على الولد، ربطه بحبل وظل يضرب بعيدان القطن

التي تتكسر على جسم الولد فيبدلها بأخرى تترك أثاراً دامية وكأنها كرابيج سوداني وصراخ الولد لا يفيد، كان يضرب بخوف كامن في أعماقه من احتمالات فقده والولد يستجير ويفشي أسراراً ما كنا ننتظر سماعها تزوّد خوفنا عليه .. وفي الليل حدَّثني علَّام عن سر ابن الزفتَّاوي الذي دفنوه في أرض أبيه بواسطة أولاد الدبَّاغين فاندهشت، ما كنت أعرفه وشاع هو أن ابن الزفتاي طفش من أبيه بليل وما ظهرت عنه أخبار:

– أصل إنتي في نومه، نسيتي التار اللي كان بين أبوه وبين ولاد الملَّاح، أهو ده راح قصاد التار .

– بس دول اتصالحوا، الملَّاحين والزفتَّاوية .

– كلام، صلح الديب ع الغنم، هو التار القديم بيموت ؟

تذكَّرت ما كان يشيع عن ذلك الصلح الذي تم بين السعيد الزفتَّاوي ودار الملَّاح وكيف سرت حكايات عن الصلح بعد العداوة فصدقناها حتى طلع السعيد الزفتَّاوي من وسط زراعات الذره في عز الظهر حاملاً بلطته لزين الملَّاح ونزل بها على رأسه فقسمها نصفين كما أكد كل من حضر الواقعة وهو يهدر :

– دم الشريف الزفتَّاوي ما راحش هدر يا ملَّاحين .

ومن جديد عقدوا صلحاً بعد أن دفنوا زين الملَّاح، وقالوا هو دم بدم

والصلح الجديد تدعمه المصاهرات واختلاط النسب، لكنها كانت إن صح كلام علَّام مجرد أكاذيب وكلام فضّ مجالس، ولابد أنه سيجيء اليوم الذي يكتشف فيه السعيد الزفتَّاوي أمر ضناه، يومها من يدري كيف يكون حال الكفر .

– وعرفت ده كله ازاي ؟

سألته فبدا عليه أنه تذكَّر أمراً كان قد نساه وقام في منتصف الليل إلى الولد المربوط يضربه من جديد ويحذره من مصاحبة أولاد الدبَّاغين، قال الكثير وهو في غير وعيه وعرفت الكثير، ولكثرة ما عرفت زاد خوفي على شاكر، هل كانت بينه وبينهم إتفاقات قديمة على دم مسفوح، أم أنه هو نفسه الذي يبدو حريصاً إلى أبعد الحدود قد شارك في قتل نساه الناس أيام تجارة الصنف، وماذا أفعل لو تعرض شاكر لمثل ما تعرض له فهيم ابن الجازية التي رأته مرمياً على طرف المصرف القديم ودمه الجاف من وقدة الشمس قد صار هدفاً لأسراب الذباب الأزرق قرب المدافن ولوح الأردواز مكسور تحته ومطموسة منه نصف الآية التي كتبها في صباح نفس اليوم في الكتَّاب، من يومها تدور في دروب الكفر وتنادي على فهيم، تمسك كل صبي يلقاها وتسحبه من يده فيصاب برعب وهي تقوده غصباً في اتجاه دارها كما كانت تفعل مع القتيل، نارها لم تبرد وعقلها لم يحتمل صدمة ضياعه دون أمل في تعويضه أو أخذ ثأره، وربما بسبب عجزها غاب عنها العقل وما عاد، تذكَّرتها

وخفت أكثر وأصبح شاكر همي ووجعي على مدى الأيام .

***

عطيّات كانت بارعة في عمل عرائس القطن لنفسها والبنات، تقص قماشها وتخيّطه وتحشوه بالقطن المحلوج فيصبح على شكل عروس، ترسم عينيها وحاجبيها وأنفها وشفتيها وتضع فوق رأسها خصلة من شعر البنات المدفوس في الشقوق فيتعجب كل من يراها ويقول إن عطيات استطاعت أن تجعل عروس القطن شبه البني آدم، كانت العمَّة تتفحص كل عروس جديدة وتبدى استحسانها ورضاها :

– عجايب .. ناقصها تتكلم .. شاطره يابت .

تفرح عطيّات وتجري في طول الدار وعرضها لنراها قبل أن تضعها مع بقية العرائس التي عملتها، كانت عطيّات رغم ضعف جسمها أكبر مني بسنة وإن كان من يراها يحسبها أصغر، صفراء الوجه ممقوتة وعودها ممصوص، عصبية ولا تشارك في شغل الدار ولو انهدَّت الدنيا، إذا أجبروها على عمل شيء تفسده عمداً أو بغير عمد، وإذا عاقبتها أمي أو وبَّخها أبي تشوّح بيديها في الفراغ وتبرطم بكلام غامض فنضحك عليها وأحياناً نفاجأ بها وقد ارتمت على الأرض، يحملونها وتصرخ أمي :

– البنت قطعت النفس .

كنا نعرف علاجها، مجرد بصلة نكسرها ونقربها من منخارها فتشمها

وتفيق، ربما تتلفت حواليها وتسأل أول من تراه عما جرى فنعاود الضحك وقد زال عنها الخطر، نسمع أمي تحمد الرب لأنه ردَّ فيها الروح، وإذا كان أبي حاضراً يداعب أمي ليطمئنها على البنت :

– قلبك خفيف قوي كده ليه؟ بكره المزغوده دي تكبر وتوريكي النجوم ف عز الضهر .

– بس تعيش .

ترد أمي وقد اطمأنت مبدية استعدادها لاحتمال عطيّات في كل الحالات وهي تربت على شعرها في حنو زائد .

وعندما سقطت عطيّات في حوش المدرسة الإبتدائي لأول مرة التف حولها الناظر والأساتذة في قلق، صبُّوا أكواب الماء البارد على رأسها ووجهها دون فائدة، ضحَّت "الأبلة" الجديدة بما تبقى من زجاجة العطر في حقيبتها دون جدوى، تحيروا في أمرها وحملها عمّ شافعي الفرَّاش إلى حجرة الناظر وأنا خلفهم أصرخ :

– هاتوا لها بصلة .. هاتوا لها بصلة .

وبصعوبة فهموا قصدي، جرى عمّ شافعي وأتى ببصلة كبيرة كسرها وقرَّبها من أنفها فارتعشت تقاطيعها وجبهتها قبل أن تفتح عينيها وتغمضهما عدة مرات وقد نزلت منهما الدموع من أثر رائحة البصل، سألت هي الناظر لابس الطربوش الذي كان في مواجهتها وأول من تحقَّقت من وجوده عما

جرى ولماذا جاءت فضحك وضحكت الأبلة وضحك الأساتذة وعمّ شافعي قبل أن يقول لها الناظر بفرحة من انزاح عن صدره هم ثقيل مفاجيء:

– قومي أدخلي فصلك يا أم بصلة .

قهقهوا وأنا أخرج وراءها من حجرة الناظر وأحدّثها عما جرى، بعدها شاع الاسم الذي أطلقه الناظر عليها، "أم بصلة" ولم يكن يغضبها سماعه من الناظر أو "الأبلة" الجديدة أو أي واحد من الأساتذة لابسي الطرابيش أو حتى عمّ شافعي، لكنها في الدار كانت تركبها العفاريت الزرق والجان إذا سمعته، ضربتني في أول مرة أقولها لها في وسط الدار، قطعت خصلات شعري ومزَّقت قميصي الجديد، قوتها التي لم أتوقعها أربكتني، بعدها طلبت من نعمات أن تخاصمني :

– دي فتَّانة وح تتكوي بنار جهنم يوم القيامة .

كانت غضبانة لأنني نقلت الاسم الشائع في المدرسة إلى الدار، كان اسمها الجديد قد شاع في المدرسة وتردَّد على ألسنة البنات والأساتذة والناظر لابس الطربوش، لكنها لم تكن تغضب، كأنها عملت حاجزاً بين المدرسة والدار وحدَّدت المسموح وغير المسموح بحسب هواها، وإذا انفلت لسان في الدار يناديها بالاسم كانت تبكي وتنتحب حتى يغلبها النعاس وتتكوَّم راقدة في أي مكان .

وحرصاً على عطيّات أفهموني أنني مسئولة عنها في طريق الذهاب

إلى المدرسة والعودة منها، كانت تضع في "مخلاتها" بصلة وسط الكتب والكراريس وكنت أسيّرها بحسب رغبتي، أخوّفها بأنها ما لم تطاوعني فسوف أتركها تموت في سكة البندر إذا أصابتها الدوخة وغابت عن الوعي ورغم أنه لم يحدث أن أصيبت بها في الطريق مرَّة، كانت تخاف، تأخذني في حضنها وتسألني بانكار :

– ح أهون عليكي ؟.

– لأ ما تهونيش .. بس اسمعي الكلام .

كانت تحبني وأحبها، وكانت تحب الناظر لابس الطربوش وتفهمني أن طربوشه يختلف عن طربوش عصمت أفندي الصراف أو طربوش أبي الذي يلبسه في المناسبات :

– طربوش نسر زي اللي بيلبسه الملك ابن الملك قريبنا .

أضحك أحياناً وأعترض على حماسها وأحياناً أسايرها وأمتدح طربوش الناظر وطربوش الملك فتفرح وتوشك أن تطير ولا تكف عن الكلام، حتى نصل إلى باب المدرسة أو باب الدار .

كانت الأجازة الحزينة التي قضيناها من غير جواهر قد فاتت وانشغلنا أنا وهي في المدرسة، وكان خوفنا من دخول وسط الدار وصحنها أو طلوع سطوحها ومقاعدها قد قل، كنا نتواجد في تلك الأماكن وقد نسينا ما سمعناه، وذات ظهيرة عدنا من المدرسة ودخلنا وسط الدار نرمح لنرى العمَّة التي

كانت تجلس أمام الكانون مزرودة الوجه من أثر النار والدخان يحاصرها وهي تنفخ فيها بعصبية، عندما رأتنا نادتني لأنفخ النار المدخنة وطلبت من عطيات أن تركن مخلاتها وتناولها بصلتين من قاعة الخزين، رجعت عطيات في اتجاه القاعة وظللت أنفخ والنار تبعث الدخان ولا تشتعل، كانت العمة تمسك في يدها السكين استعداداً لتخريط البصل الذي بدا لها أن عطيات تلكأت في إحضاره، فنادت عليها عدة مرات تتعجلها :

– البصل يا مخفية .. هي ما بتردش ليه أم بصله دي كمان ؟

وعندما أكملت العمَّة عبارتها رأيت عطيّات من خلال الدخان الكثيف تعبر "الخوخة" وتقف مكانها، تلقي على طول ذراعها عدة بصلات في إتجاه العمَّة أمام الكانون، سمعتها تبرطم وتشوّح بيديها وتصرخ محتجة :

– اسمي نيله عطيّات .. اسمي نيله عطيّات .

تأجَّجت نار الكانون فجأة وشعرت بالسخونة فانزحت إلى الخلف وقامت العمَّة بعسر في اتجاه صحن الدار وهي تكيل الشتائم لعطيّات وصنف عطيّات والمدرسة التي علمتها قلة الأدب، سألت عن شبشبها وملسها وطرحتها علامة الغضب الشديد وتهديداً بالخروج من الدَّار، ولابد أن أمي أو نعمات قامت بإخفاء هذه الأشياء حتى لا تتمكن من تنفيذ رغبتها وتهدأ وقد ينتهي الغضب على خير، جلست العمَّة تهدر وحاولت نعمات إقناع البنت بالذهاب إلى العمَّة لتطيّب خاطرها بينما الأم تحاول الاعتذار بدلاً من عطيات، لكن البنت عاندت وركبت دماغها ولم تذهب، حاولت

معها الأم فلم تستجب، حتى عندما جاء أبي وحاول معها على طريقته لم يفلح، بل إن البنت تعصّبت أكثر فتركها تأكل روحها كما قال وجالس العمَّة مبسطا الأمر ومؤكدا أن البنت صغيرة لا تدرك ولا تقصد حتى أكملت أمي ونعمات عمل العشاء، رصُّوه على الصينية وشد أبي يد العمَّة التي هدأت لتنزل :

– اقعدي يافطوم اقعدي .. إحنا ح ننكّد على روحنا في ليلة مفترجة زي دي عشان عيلة ماتدركش؟

– يخيبك يا بعيدة، أنا ياخويا مالحقتش، هو إيه أصله ؟

– يكونش بصل الناظر بتاعكم حلو وبصلنا حرّاق يابت؟

قالت وهي تنظر ناحيتي فضحكوا بشدة، ربما كانوا يصالحون العمَّة بتلك الضحكة وربما توقعوا أن تلين عطيّات وتأتي، لكننا سمعنا شهقات البنت حارة ونهنهاتها تفلت منها لتؤكد لنا أنها كانت تبكي بحرقة، كان وجه أمي قد ارتبك خوفاً أن يحدث للبنت مكروه وهي وحيدة في القاعة، وكان وجه العمَّة قد صار مغلولاً وبياض خديها يوشك أن يتحوَّل إلى زرقة خالصة ثم قامت تسب وتلعن البنات وخلفة البنات وقلة أدب البنات، ولا أدري كيف أفلحت هذه المرة في العثور على الأشياء المخفيَّة، جهَّزت نفسها وخلَّصت أطرافها بعنف فاق كل محاولات إبقائها، كانت العمَّة قد انفلت عيارها وأصبحت واحدة أخرى، خرجت من باب الدار بليل وأبي في إثرها يحاول إعادتها وتزداد صخباً وهي تمشي في الدرب ناحية دارها حتى ابتعد

صوتها فاختفى أو كاد، وعلا صوت الشهقات المتقطعة الآتية من القاعة، ذهبت نعمات والأم إلى البنت ووقفت حائرة وقلقة من احتمالات توهانها كعادتها، عندما عاد أبي كان يبدو غاضباً وثائراً على الجميع، كان يسب ويلعن هائجاً بلا حدود ثم أصدر أمره بعلو صوته مؤكداً على كل حرف :

– البنت دي ما تروحش مدارس من بكره، تقعد ف البيت وكفاية الكلام اللي اتقال علينا لحد كده.

كان من الواضح أنه اتفق مع العمَّة على ذلك وأنه ليس على استعداد للتراجع، لم يعلق على قراره أحد، تكورنا في أماكننا وسمعنا هزهزات السرير الذي طلع للرقاد عليه بجلبابه الكشمير دون أن يفكر في تغييره، كان يلف الدخان لفافات يدخنها ويرمي أعقاب السجائر في أرضية المندرة، وكلما غفوت وصحوت وجدته يدخن أو يلف سيجارة جديدة حتى طلع النهار وأيقظتني نعمات لألبس ثياب المدرسة وحدي وأخرج وحدي وعطيّات راقدة مكانها تتقلَّب وأمي تتجاهلها وكأنها اتفقت مع أبي خلسة أثناء الليل بأن يكون ذلك اليوم هو أول أيام انقطاعها الدائم عن المدرسة التي عشقتها مثل الناظر الذي كان يؤكد لكل الأساتذة أن عطيّات سوف تشرّف مدرسته بنجاح متفوق في ابتدائية هذا العام، وربما لم يعرف أبدا أنه دون أن يدري كان سببا في منع تلميذته المتفوقة من الاستمرار في الدراسة، مجرد الاستمرار .

بعد أيام من الرقاد المتواصل الذي امتنعت فيه عطيّات عن تناول الطعام

رغم الإلحاح عليها من الجميع جاءت العمَّة، اقتربت منها أمي ورجتها :

– أبوس إيدك ياعمه، أبوس رجلك تعفي عنها وتسامحيها .

قالت وهي تمسك بالفعل بيدها اليمني وتقبلها مرَّات متكررة على ظهرها، ثم تنحني وتمسك بساقها التي خلّصتها العمَّة من يديها بقوة فانكفأت أمي بشدة على وجهها، ولابد أن الخبطة أوجعتها وإن احتملت وزحفت على الحصير وقد انحلَّ المنديل عن رأسها وزحفت على الحصير ضفيرتاها مستمرة في الرجاء بمذلة أكثر للعمَّة الواقفة :

– البنت يا عمَّة ح تروح فطيس .

– تقطع بروحها يامريم، أروح أحب على راسها لجل تتسمّم وتاكل، أتحايل على بنت لا راحت ولا جت بعد شعرى ما شاب ؟ ياريتها كانت ولد يامريم وأنا أتحايل عليه .

كانت تنظر ناحية القاعة حيث ترقد البنت، لعلها تردَّدت قبل أن تتجه ناحية باب الخروج غير مستجيبة لكل النداءات التي تئن بها أمي، لعلني في تلك الساعة كرهت ضعف أمي وقسوة العمَّة، كانت نعمات في القاعة وبدا لي أنني أسمع صوت عطيات لاهثا بعسر إنما بإصرار :

– هي السبب ف كل حاجة .. هي السبب .

ومازلت لا أعرف إن كانت تقصد العمَّة أو أمي، تلك التي كانت تنظر إلى مصدر الصوت بيأس كامل، لعلها كانت قد أدركت قبلنا أن نهاية عطيات كانت تقترب وأن أيامها معدودة بيننا، كانت البنت قد كفَّت

عن تناول أكواب الماء التي تحلّيها نعمات بقطع السكر، كانت تكتفي بالماء الخالي من أي إضافة، وكان وجهها قد إزداد صفرة وجسدها يتصبب عرقاً ولا يجف، ولم يكن هناك غير عينيها الملونتين تنظران إلى الوجوه في سماحة أو إلى خشب السقف، كانت تجرؤ على تأنيب أبي لأن العمَّة تسيّره على هواها بمالها وكان لا يرد عليها يبدو متألماً وعاجزاً عن فعل شيء فيخرج من القاعة أو يهرب من كل الدار تاركاً أمي وحيدة وقد أحنت رأسها في انتظار الموت .

– يا كبدي يا بنتي .. هو انتي حمل ده كله ؟

كانت تسألني عن المدرسة والناظر لابس طربوش النسر فأحكي وأحكي وفي داخلي إحساس بأن هذه الأيام لن تتكرَّر، وبأنها سوف تموت وتذهب إلى الجنة وترتاح من تعب الدنيا وقسوة الكبار.

الوحيدة التي لم تتراجع أو تطل عليها مجرد إطلالة كانت هي العمَّة، تأتي متجهمة طوال الوقت كما تخرج، لعلها في كل مرة كانت ترغب في مصالحة عطيّات كما أكدت لي بعد ذلك لكنها لم تستطع أبدا، شيء غامض كان يمنعها في اللحظة الأخيرة، وكانت عطيّات رغم قلة وعيها في الأيام الأخيرة بما يدور حولها تتجهم إذا سمعت صوت العمَّة، فأوشك أن أطلب منها الرحيل ولا أجرؤ، كنت ألوم نفسي وأشعر أنني كنت مسئولة عما جرى لها دون قصد، ولولا أنها قالت لي مرّة قبل أن ترحل وهي تمسك يدي بينما أحكي لها عن

المدرسة والناظر بعسر :

– مالكيش انتي دعوة ياشوق .. مالكيش دعوه ياختي ..

لولا أنها قالت وسمعت لمتُّ مقهورة بعدها وبنفس الطريقة، ففي صباح شم النسيم وجدناها راقدة مكانها وقد انقطعت أنفاسها تماماً، عيناها مفتوحتان ترقبان خشب السقف ويداها على صدرها وكأنها على استعداد لتسميع درس حفظته عن ظهر قلب، بكيناها بحرقة، حتى العمَّة بكتها، ولا أظن أنها بكت غيرها بنفس الكثرة، وما تبقى من عطيّات غير عرائس القطن أجمعها وأتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى عطيّات وأبلغها أخبار ناظر المدرسة لابس الطربوش حتى أخفوها عني أو تخلصوا منها في مكان مجهول خوفاً على عقلي من الضياع كما كانوا يقولون .

***

دخول الحاج مرسي إلى دارنا أو ما تبقى منها أشعرني بالخجل، رجل له مثل هيبته في الكفر يجلس على بقايا الحصير الكالح المهترىء ويستند على مسند ممزق الكيس يطل قطن حشوه في أكثر من مكان، وقفت أمامه مطرقة وحائرة فتبسَّط وهو يحدثني :

– اقعدي يابنتي اقعدي .. واقفه كده ليه ؟ دانا ابن عم المرحوم أبوكي، يعني عمك واسدّ بداله .

– كتر ألف خيرك .

جلست مستطلعة سبب زيارته ومرحبة أداري تمزيق ثوبي وتآكل نسيجه في أكثر من مكان، كانت أمي قد عملت له كوب الشاي وقدمته فتناوله ووضعه إلى جواره "خفيف ولابد أن سكّره ناقص" عاودت الترحيب به و"زارنا نبي" و"خطوة عزيزة" هز رأسه شاكراً وباغتني بالسؤال :

– مش ناويه ترجعي بيتك بقى ؟

– ما أنا ف بيتي يابا الحاج .

– قصدي بيت جوزك، عشان تربي عيالك في خير أبوهم .

شعرت بغصة وهو يتحدث عن خير علَّام، كأنه يعايرني بفقري وعوزي في دار أبي، سألته إن كان علَّام قد طلب منه ذلك فأنكر وادعى أنه جاء متطوعاً وأنه سوف يمر على علَّام في دكانه بعد أن يصل معي إلى حل، أشار بطرف خفي إلى علاقة علَّام ببنت بحر فأبديت قرفي لأنه "لاف" على من تناسبه، قلت للحاج مرسي إنني احتملته كثيراً رغم نجاسة ذيله وأنه لم يعد يشغلني بأفعاله فهدَّأني :

– إحنا عاوزين نردم ع اللي فات .. انتي عاجبك قعادك هنا ؟

– دار أبويا تساعني ولو كانت خرابه، ح أروح فين ياحاج ؟ هو أنت مش عارف اللي حصل ؟.

– ليّني دماغك شويه .

ولم أرد "ليّنت" دماغي سنوات وما عاد في قدرتي أن أحتمل المزيد،

كنت أحني رأسي حتى تهدأ العاصفة، وفي كل مرَّة أحاول إفهامه أنني لم أرتكب ذنباً في حقه وأن أخطاء أهلي لم تعجبني وأن حسابه مع أبي لم يكن في حضوري، ولم يكن في مقدرتي أن أسدّد ديونه لعلَّام وقد خربها وباع سقفها وأبوابها في رقدته المشلولة التي طالت، وقبل موته كنس كل شيء، الأرض والدكان والسمعة التي كانت في السابق طبلا فخلَّفها وحلاً وجعل من سيرته "لبانة" يتشدق بها من يساوي ومن لا يساوي، كل يوم يظهر لنا دائن جديد بأوراق ويطالب أمي فتشرح الحال، ترق لها القلوب ويستعوض الغرباء حقوقهم على مرأي ومسمع من علَّام، لم نطالبه بسداد دين أو مساعدة للمرأة التي عاشت من بعد الزوج على الكفاف، وكان يعاديني، يحاول إذلالي وتجريحي في كل وقت، أتصابر من أجل الولد والبنت الوليدة، يفتعل الخلاف معي ويجمع المجالس من الأهل والغرباء ويتشكّى، يكشف أسرارنا بلا خجل ويتيه زهوا بما يملك، يستفتيهم في كل مجلس كيف يكون نظام الدار، مصروفاً شهرياً أو يومياً، معاشاً من محصول الأرض المزروعة ونتاج الدار لبناً وسمناً وجبناً وبيض دجاج، مخزوناً من دقيق وأرز أو طبخة بطبخة من الدكان، حيَّرني، وكلما وصلنا إلى اتفاق بحسب رأي كل مجلس ينفذه يوماً أو يومين ثم يتراجع ولا يستمر :

– الاتفاق ده مش ح يمشي .

ومن جديد يستدعى مجلساً من الغرباء، أغرق في ثيابي وأتمنى لو انفتحت

الأرض لتبتلعني وأرتاح، عشرات المجالس وعشرات الاتفاقات وعشرات الوجوه، كأنه ليس في الدنيا دار غير داره ولا دكان غير دكانه، وأنا أستجير بالحيطان لتداريني فيكشفني، أحاول أن أصل معه إلى برّ أمان فلا أستطيع، أعارك أمي وأبي الراقد الذي كان سبباً في كل هذا القلق، ألومه فيسمع ولا يرد، أقول لنفسي إنهم خيبوا أملي وأن لعلَّام الحق في أن يتشكَّك في كل شيء، في ذمتي ورغبتي أن أعيش في راحة بال، وصل الأمر معه إلى حد عدم الاطمئنان إلى أكل الدر، يأخذ الولد معه في الصباح ويعود في الليل، لا يكسر لقمة من خبزنا ولا يشرب جرعة ماء ويوصي الولد أن يفعل نفس الشيء، أي أم تلك التي تحتمل شكوك صبي ولدته في طعام جهَّزته له أو شراب كأنني عدوة تدس له السم لتقضي عليه .

– ما تخدش من إيدها حاجة ياوله، دي عايزه تسمَّك .

يقولها للولد في حضوري فبأي المخاوف كان يغذيه بعيداً عني ؟ وإذا رضيت بخوفه على حياته مني فكيف أرضى بخوف الولد ؟

– ح اسم ابني ياعلَّام ؟

أسأله بإنكار فيواجهني وكأنه صاحب حق لا تنكسر عيناه وإن كانت تقوى:

– مش بعيد عليكي .. فاكره عمّتك عملت إيه ف الحاج فرج ؟ فاكره ؟.. عاشرته كام سنه قبل ما تعمل عملتها ؟ وعاوزاني آكل من إيدك ؟

لا أذكر أنني عارضته ليلتها، ربما خفت أن يجمع مجلساً من الناس ويقول

نفس الشيء فتكون مصيبة وفضيحة تروج في كل الأنحاء، وطوَّعت نفسي على السكوت :

– وصلتي لحد فين ؟

قالها الحاج مرسي ليعيدني إلى المكان والزمان فجاوبته :

– معاك .

– خلاصة الكلام، قعادك هنا مش عاجبني، المدارس ح تفتح والولد محتاجك، علَّام ح أجيبه غصب عنه وح ترجعي دارك، قلتي إيه ؟

– اللي تشوفه يابا الحاج .

قلتها مستسلمة وعاجزة عن الاعتراض فقام الرجل، سلَّم وخرج وترك كوب الشاي بارداً حيث كان، لعله أراد أن يوضح لي إلى أي حد صار إليه حالنا وقد عجزنا عن تقديم أي واجب يليق حتى ولو كان مجرد كوب شاي تقبل النفس أن تشربه، لعله ذاقه ولم يعجبه أو أن شكله يغني عنه .

وأنا أرفع المسند لمحت شيئاً يلمع، رفعته فوجدت ريالاً فضياً محطوطاً تحت قاعدته، هل صعب عليه حالنا إلى هذا الحد أو أنه أراد لنا الستر ساعة أن يأتي مصحوباً بالغرباء بهدف الصلح في المساء، دين جديد لا أملك ردَّه أو سداده من ابن عم العم يا أبي يضاف إلى ما ورثناه من ديون خلَّفتها في أعناقنا، ما حيرني هو كيف ومتى رفع المسند وحط تحته ريال الملك فؤاد لابس الطربوش .

في الليل سمعنا جلبة عند باب الدار، هل كان الحاج مرسي مازال يليّن

رأسه ليقبل الدخول ؟ لكنهم دخلوا، كان الولد معه، محكوماً وأنا أراه من خلال الفتحة الخالية مكان باب المندرة ويراني ولا يفكر في المجيء، جلسوا على نفس الحصير واستندوا على نفس المساند القديمة، علَّام وبكري والولد والحاج مرسي الذي ناداني فذهبت، جلست أنتظر وبدا لي أن علَّام كان يمسح كفه الذي لابد وأنه "إنعاص" من أرضية المندرة الموحلة، كان يمط بوزه في قرف أو تظاهر بالقرف من كل ما كان يحيط به وبنا من أشياء، قال الحاج مرسي :

– ح نقرا الفاتحة ربنا يهدي النفوس .

تمتموا بها وتمتمت ثم توجه الحاج مرسي بكلامه إلى علَّام :

– إحنا ح ننسى اللي فات ونردم عليه، نقول إن إحنا ولاد النهارده ياسي علَّام .

– بشروطى ياحاج .

قالها بنبرة من لا يرغب في شراء بضاعة بارت لآخر السوق مطمئناً إلى استعداد البائع للتفريط فيها بأبخس الأثمان .

– سي علَّام له حق ياخد على خاطره منك ياست أم شاكر.

قالها بكري فلم أكلّف نفسي عناء الاعتراض أو التأييد، تنحنح الحاج مرسي ليزيل أثر انحياز بكري "أسّ الفساد" إلى علَّام، ذلك الذي يجلس الولد على ركبته وهو ينظر ناحيتي وكأنني زوج لأبيه ولست أمه، رأسه

الصغير مشحون بأكاذيب دسَّها عني في زمن الغياب :

– إحنا مش ح نرمي لحمنا ياسي علَّام .

– دار أبوها ماتدخلهاشي .

اشترط علَّام فسايره الحاج .

– ما تدخلهاشي .

– تخدم الصغير قبل الكبير، ماتمسكش المصروف ولاتطلبش مني اللي ما قدرش عليه .

كانت نغمة التحكُّم فيه بادية "وعنطزته" الزائدة تكيد، تصابرت لأنني كنت مكشوفة أمامهم في عراء، لا أخ ولا أخت ولا أب ولا أم معمول لها حساب ولا دار فيها خير يكفي لإطعام الدود، عراء في عراء :

– ماتفتحشي حنكها ولا تقول تلت التلاته كام، أهي جربت دار أبوها سنة، يمكن تكون عرفت قيمة الراجل في بيته، تعمل زي أمها ما كانت بتعمل مع المرحوم .

– وماله يا علَّام .. وماله .

ردَّ عليه الحاج مرسي وقد امتعض، ربما شعر بالندم لأنه تدخل هذه المرَّة، وواجهني علَّام :

– ويكون ف علمك من دلوقت، أنا ح أرجعك عشان خاطر الولد ده بس .

كانت أول عبارة يتوجه فيها مباشرة لي، وكنت مغلولة ومكتومة

فانفجرت فيه :

– انت تبيع وتشتري ف واحده م الجواري اللي فاتهم لك أبوك، أبوك اللي مات عريان .. شايف يابا الحاج .. ولد إيه يابو ولد ..

كتم أنفاسي كف الحاج مرسي الذي قام وحذَّرني من الاستمرار لقول المزيد لكنه قام وخرج في أعقابه البكري والولد، بقى الحاج مرسي لتهدئتي، بصَّرني إلى ما صار إليه حالي وحال البنت، قال إن الكلام ليس عليه جمرك وهو مجرد كلام طائر في الهواء، شكوت له من نصيبي الذي رماني معه وواساني، وعدني بالوقوف معي مالم يستجب علَّام للأصول ولو وصل الأمر للمحاكم وصرف من جنيه لألف، لا أذكر أنني شعرت بمهانة في كل عمري أكثر مما كنت في ذلك المساء، كنت أبكي والرجل الكبير يلطّف الجو ويريحني في كل ما كنت أرجوه ساعتها، الخلاص وأخذ الولد ونفقة تكفينا لنعيش، أتعبت الرجل معي ساعة أو يزيد أقسم خلالها ألف يمين أن يطمئن على معيشتي إن رجعت أو بقيت في دارنا، صدقته ودعوت له بدوام الصحة، وأوصاني قبل الخروج إن جاءني علَّام في الصباح أن أكتفى بمجرد الذهاب معه دون اعادة فتح الموضوع :

– أنا من ناحيتي ح أجيبها له على بلاطة، يا تعيشي معاه رافعة راسك يا يسيبك ويبقى لي تصريف معاه .

طمأنني وإن لم يشف غليلي، عزَّ على النوم حتى طلع النهار وبدني مهدود

وحلقي جاف وقلبي جريح، لكنه قبل الضحى دخل الولد من باب الدار، اقترب مني وسألني إن كنت مازلت أخاصمه فأنكرت خصامه، بكى فأخذته في حضني ومسحت دموعه ودموعي وسمعت صوت علَّام :

– هات أمك وأختك وحصَّلوني ع الدار يا شاكر .

كدت أعبر له عن اعتراضي فجلس إلى جواري، وحاول أن يتنصَّل من كل ما قاله :

– طيب إنتي وابنك وكنتم متخاصمين واتصالحتم، يبقى ذنبي أنا إيه ؟

لم أعلق .

– شوفي إنتي غلطتي ليلة إمبارح قد إيه؟ وبرضه مسامح ف حقي، هو أنا يجيبني أعز منك ؟

لم أكن أصدقه، لعلني عوَّدت نفسي بعدها على السماع دون تصديق، دعاني للقيام إلى داري فتنهدت وقمت أجمع ملابسي فمنعني :

– خليهم لأمك تستفاد بيهم، قيمتك عندي حاجة تانية، إنتي ح تلبسي أحسن لبس، إنتي مستقلَّة بروحك ؟

كأنني خارجة من سجن وذاهبة إلى سجن آخر قريب ولن يتغير غير السجَّان، ربما أخلص من رغيف "السن" وقطعة اللّفت وأبدلهما برغيف القمح والإدام، لكنني لن أهنأ بعد المرار في غضبتي الطويلة أو استشعر

الأمان، ولعلني تأكدت في داره أن كل ما فيها لا يخصني بأي حال، وأنه في لمح البصر يمكن أن يجرّدني هو من كل حق أدعيه ولا أملكه، ولعلني جهَّزت نفسي للحياة في داره مستعدة لتركها في أي وقت يشاء مغصوبة وراضية لأنني انغلبت على أمري كي أرعاهم وأحرس جدرانهم وخير الدار .

***

– حتى دكر النحل يا مريم بيعمل عملته ويتوكل على الله .

سمعت أبي يقولها وأنا أدخل المندرة، كان في المندرة دفء "وراكية" نار قوالح تتوهج، اقتربت من النار وفردت راحتي وقربتهما من الوهج ثم مسحت بهما على وجهي وصدري عدَّة مرَّات، استمرأت الدفء فجلست مكاني قرب النار، كانا يتبادلان النظرات ولا يتكلمان، فكرت أنهما ربما يودَّان لو أخرج وأتركهما يكملان الكلام، نظرت نحوها فوجدتها تنظر إليّ قبل أن تقول لتشركني :

– قول لها، لا هي صغيرة ولا غريبة عنك، بنتك زي ما هي بنتي .

– كله فوق دماغي ؟ ماحدش بيرحم ولا يقول بايدك أبداً ؟ عايزين اللقمة جاهزة في الحنك من غير تعب خالص ؟

كان في صوته احتجاج يوشك أن يكون تباكيا، لملم ساقيه المفرودتين ونفض "حجر" جلبابه فلم يتناثر منه شيء، انتفض واقفاً وخرج من باب المندرة الموارب، شده إلى الخارج بشدَّة فرنَّ صوته ثم ذاب وساد صمت

كانت هي تنظر إليّ وكأنها تستغيث بي لأنقذها لا أدري من أي شيء، ظلت تتأملني وملامحها تتبدَّل وتتغيَّر والشفتان تنفرجان وتنضمَّان دون أن يصدر عنهما حرف، كانت النار تنعكس في عينيها بريقاً أحمر عدوانياً وهي تنظر ناحية الباب وكنت أنعم بالدفء، أطل وجه أبي من باب المندرة، إندس في نفس مكانه يتدفأ قبل أن يبرر عودته :

– النطرة مغرقة الدنيا بره والشوارع روبه لحد الركب، أمال أنتم ساكتين كده ليه ؟

لم تجبه واكتفت بالنظر إليه في حيرة، سألني هو :

– أمال إنتي رجعتي من عند عمتك إزاي ؟

– من جنب الحيطان، رجلين الخلق عامله مدقَّات.

نظر إلى ساعدي واطمأن على زوج "الغوايش" الذي كانت عمَّتي قد اشترته لي مكافأة على نجاحي في الابتدائية كما وعدت، تحسسه بفرح وزهو:

– مبروكين عليكي، حلوين، باين عليهم تقال .

وقبل أن أعلق معبَّرة عن فرحتي بالهدية اعتدلت هي في جلستها وبان في عينيها استنكار فواصل أبي:

– عمّتك راقده على خير كتير، شرك مواشي وأرض ملك غير الجنيهات الدهب المجيدي والبندقي .

– بكره كل ده يروح ف عب الحاج فرج ولا نطول أبيض ولا أسود .

قالت أمي مستمرة في التعبير عن عدم ارتياحها على عكس ما كنت أنتظر منها وأتوقع، رد عليها متضرراً :

– وإحنا ف إيدنا إيه بس أكتر من كده ؟ أهو اللي بنطوله فايده .

– ف إيدنا شوق حبيبتها وسرها العمر كله، واخداها ف حضنها العمر كله، ولا ده ببلاش ؟

على هذا النحو كان يحاورها وتحاوره لأفهم أنه في أزمة وأنه يخاف من موتها المباغت وكل ما يحوطه ويتاجر فيه ملكها بأوراق مكتوبة يستطيع الحاج فرج أن يظهرها ويأخذ كل ما نملك ومن العدل أن تحتاط لحسابي إن كانت قد غابت عنها الفكرة :

– الحكيم يا بنتي قالها لي بيني وبينه، والأعمار بيد الله، بس هي اللي قالت لك، مش عيب تسأليها كتبت لك إيه ؟ الحاج فرج محوَّط عليها وماحدش ف الزمن ده له أمان .

في يوم السوق رحت لها فأدهشني أنها فاتحتني في علاقتها بالحاج فرج قبل أن أفاتحها، كأنها كانت معنا أنا وأمي وأبي يوم تحدثا عن قلقهما من احتمالات موتها فجأة، حدثتني عنه من غير احتراس، وأزاحت عن قلبها هماً شالته وحدها عمراً دون بوح أو شكاية، كان الحزن يطل من عينيها الخضراوين بزرقة وهي تستعيد ما كان، كيف رأته شاباً عفياً في سوق الخميس، اشترت منه عجل جاموس تصعب قيادته، وكيف تطوَّع بسحبه حتى باب دارها، كيف

اعتاد بعد ذلك أن يشتري لها كل ما كانت تحتاجه من سوق الخميس ثم يقوم بتوصيله حتى باب الدار ويرفض أن يعبر العتبة ليبل ريقه ولو بجرعة ماء .

– "كان زي البنت البنوت وحقاني" "اشتريتلك يا ست هانم بخمس قروش وعرقي وتعب مشواري مايجوش حاجة ف إنسانيتك وكرم أخلاقك" لكن ولاد شلبي مايعجبهمش العجب ولا الصيام في رجب، طلَّعوا فيه القطط الفاطسة، زنُّوا وزاد كلامهم، قالوا عليه طمعان ف مالي .. وقالوا وقالوا، كتبت عليه ودخلته داري، رقدته ف فرشتي ولبسته صوف وكشمير وشاهي لكن ما حصلش منه نصيب ولا خلفه، عشر سنين لحد النهارده ما قاليش تلت التلاتة كام .

كان في صوتها حسرة على مشوارها معه، على شبابه الذي انطفأ الآن أو أوشك على الانطفاء، برقت في عينيها دمعتان محبوستان، أشفقت عليه وعليها وشفت جرح عمرها الغويط، شفت الزمان غير المطاوع وشماتة الأعداء يعيرونها بحظها في آخر الأزواج وسن اليأس وانعدام الرجاء، كوَّرت هي راحتيها ثم فردتهما بشدة عدة مرَّات وكأنها تطرد خاطرا أو فكرة تسلَّلت إلى عقلها خلسة، ربما فكرت مثلي أن الحاج فرج قام بدوره على خير وجه، وربما كانت قد قرَّرت على عكس ما فكرت أن تبعده عن حياتها وحياة أولاد شلبي، زمَّت شفتيها وسألتني :

– إنتي .. رأيك إيه ؟

كنت قد أطرقت حزناً لأنني تأثرت بكلامهم عنه وخوفهم من أطماعه إن

هي ماتت فجأة مثلما قال الحكيم، زفرت هي وربتت على كتفي في حنو بالغ، ولأول مرة أرى دموعها تتساقط دون صوت والتقاطيع على حالها، بكيت فطالبتني بأن أكف عن البكاء وما كفَّت عيناها عن إفراز الدموع، احتضنتني واحتضنتها بقوة كراهيتي للموت الذي حام حولها طوال العام الأخير، سألتني ماذا أتصور إن ماتت هي فجأة فبكيت بصوت سموع، طمأنتني بثقة أنها لن تموت قبل أن تطمئن على حالي، أمسكتني من الكتفين ونظرت إلى وجهي ومسحت بكفها اليمنى دموعي وبكم جلبابها وجهها وعينيها ثم ابتسمت في ثقة وسألتني :

– يروح لحاله ؟ مش كده ؟

أومأت لها علامة الموافقة، ربما لو كان الوقت غير الوقت لفكرت واستفسرت منها إلى أين سوف يروح، رفعت هي وجهي بأصبعها المحطوط أسفل ذقني وتقابلت عيناي بالبريق الملون في عينيها وكأنني تواطأت معها على ضرورة الخلاص منه .

كان المطر يتساقط وحصوات الثلج ترن على خشب السقف والنوافذ، وكانت "راكية" النار تتوهج أمامنا وتبعث في المندرة دفئاً كافياً وقد تركت الباب مفتوحاً بعد أن تسرَّب كل الدخان من النافذتين، كنت أرى وسط الدار أمامي، وكرات الثلج الصغيرة تتقافز وهي تسقط فوق "طشت" النحاس المقلوب فيصدر عنها صوت مختلف عن تلك التي تسقط على حجر الطاحونة القديم وتلك التي تسقط على الأرضية العارية وسط الدار، كأننا

كنا نترقب عودته دون كلام منطوق، مجرد نظرات صامتة لم نعتدها وإن اتفقنا على فهمها، كأنه حط علينا خرس مباغت بمحض اختيارنا ورضانا، سكتنا لزمن طال أو قصر كفَّ فيه الثلج عن السقوط ثم عاود السقوط، كأنني كنت أعيش حلماً يختلف عن كل ما ألفته معها من مجرد الكلام في الفارغة والمليانة، وكأنما كانت روح الحاج فرج تحوم حولنا وتأسرنا وتجعلنا ندور في مدارها إلى حدّ أنه عندما تنحنح مقترباً من الدار قمت على غير عادتي لأفتح له قبل أن يصل إلى الباب، ابتسمت له وكان يبتسم، كان جلبابه مبلولاً وملطخاً من ذيله بمساحات من الطين الطري الذي يتساقط بعضه مع قطرات الماء، خلع مداسه قبل أن يدخل القاعة ثم يتوجه إلى المندرة، فكرت أن آخذ مداسه وأخلصه من كتل الطين لكنها نادتني :

– سيبي المداس دلوقت وتعالي شوفي جوز عمتك جايب إيه معاه .

تركت المداس ومسحت راحتي في جلباب قديم، كان يخلص قبضته من فتحة جلبابه وتحته منديل محلاوي مربوط حول علبة من الصفيح، قال بزهو وهو يلتفت إليها :

– شوية عسل م المنحل بتاعك ياست فطوم، سليم النحّال بتاع طوخ بيقول إنهم أكل ملكات، ما يغلاش عليكي، بيقول حته على طرف المعلقة كل يوم الصبح وتقومي زي الحصان .

كان يدفىء يديه على نار "الراكية" ويحكهما في حركة سريعة منتشية، وكان

جلبابه المبلول مكوماً فوق الصندوق وقد لبس غيره دون أن ألحظه، أومأت هي :

– هاتي لجوز عمتك فطيره من عمايل أختك نعمات يتغدى .

بدت عليّ الحيرة لأن نعمات لم تعمل فطيراً، ربما أدركت هي ربكتي فأسعفتني :

– محطوط ف دولاب الحيطه وجنبه صحن الجبنه القديمة هاتي صحن فاضي نحط له معلقة عسل، يدوقه قبل ما أحطه على لساني .

فتحت باب دولاب الحائط فوجدت فطيرة مفرودة تفتح النفس المسدودة، سألت نفسي كيف استطاعت أن تعجن وتلت وتفرد وتسوي فطيرة وقد دخلت عليها فوجدتها راقدة تئن، وإن لم تكن هي التي فعلت فمن غيرها ؟ وهل أصدق ما قالته أمي بأن العمَّة تؤاخي الجن الساكن سابع أرض وتشغّله لحسابها وقتما تشاء، حضَّرت كل شيء ووضعته على صينية العشاء أمامه فمد يده وكوَّر لقمة بين أصابعه وهمس بآلية لي :

– بسم الله.

كان يبدو جائعاً ولا ينتظر ردّاً، يلتهم اللقيمات المغموسة في صحن الجبن القديم التهاما، يزدرد بنهم وشهية رجل مطمئن، ويتبلَّع بماء القلة، لكنه كفَّ فجأة، نظر إليها ثم إليّ وقال بصوت مبحوح :

– ناوليني معلقة .

ناولته الملعقة والصَّحن الفارغ ففتح بطرفها غطاء العلبة، ملأها من غذاء الملكات وابتلعها ثم أعاد ملأها وابتلاعها أكثر من مرَّة وبسرعة وكأنه يطفىء بغذاء الملكات ناراً في جوفه استشعرها فجأة، قالت هي وكأنها تكشف غطاء لعبة :

– حامي عليك ؟

فهق من حلقه عدّة مرات وزاغت عيناه، احتقن وجهه وأحنى رأسه ثم تكوَّر عن نفسه واضعاً راحتيه على بطنه وضاغطاً عليها بكل ما تبقى من عزمه .

– نا...ر.. نـ.. ا...ر

مد يده ناحيتها مستجيرا، خفت وقبضته ملمومة بقسوة وهي عاجزة عن الاقتراب منها أكثر أو الابتعاد، كان هناك هدف خفي يسعى للوصول إليه عندها ولا يقدر، وكانت هي تنظر إليه مجرد نظرات، هل امتزج خوفي منه بكراهيتي لها في تلك اللحظة ؟

– غـ... ي.. ت.. ي.. نـ.. ي

قالها ولعابه يتساقط من شدقيه .

– خلاص يا فرج، دلوقت ترتاح .

– آه... آه..

– سلامتك م الآه يا عشره ع الغالي .

كانت تندبه لنفسها وله وهو حي، يسمع ويرى وينطق بعسر، ربما كان يسمع ويرى بعسر لكنه كان معنا في تلك المندرة المدفوسة في آخر الدار من ناحية فراغ الواطية بعيد عن ناس الدرب، ينظر مرعوباً وربما يدرك ما جرى له أو لا يدرك على وجه اليقين، كنت أرقب في هلع، منكمشة على نفسي في ركن أتسمع خبطات قلبي كلما توقفت هي عن الندب وهي ترفع راحتيها معا، مضمومتين فيما عدا السبابتين المفرودتين تحركهما إلى اليمين ثم إلى اليسار في ليونة ونعومة وصنعة .

"نعش الغريب ف البحر ما يمشي

كان خاطره ف الحيّ ما قسمشي"

"نعش الغريب يوطى ويعلا لفوق

دايـــر على أحبابه يبل الشـــوق"

وكان يرفرف بعسر كفرخ داسته خف جمل، ينشال وينحط مكانه بلا أمل، يتلوى ويئن ثم يكف، يصدر أصواتاً لم تكن تخصه قبلاً، مكتومة وعاجزة، هل أدرك النهاية قبل أن تتسع عيناه وتثبتان على نظرة لائمة نحوها فيها من الاستكانة والاستسلام أكثر مما فيها من الاحتجاج، هل ارتضى شكل نهايته بتدبيرها على هذا النحو فأراح نفسه من كل عناء ؟ سمعتها تأمرني :

- اغسلي إيديكي باليه والصابون .

خرجت في اتجاه الطلمبة مترددة، فرغم الخوف كنت أود أن أعرف كيف تطلع الروح من البدن الحي، رأيت الحفرة العميقة التي تتَّسع لدفن رجل

بطوله واقفاً، هل حفرها الجن من أجل العمة ؟ كانت العتمة قد سيطرت وضوء المصباح لا يكفي لبث الطمأنينة والريح تعابثني وعواء الكلاب يتزايد في أرض الواطية، ربما كانت تطارد الشيطان أو الجن الطالع من سابع أرض ليساعد العمَّة تلك التي رجعت إليها بعد أن غسلت يدي لأسمعها تحادثه .

– ح أعمل لك أحسن خارجه، وح أجيب لك صبيته من مصر، وح أخلي الخلق تتكلم عن موتتك اللي زي ميتة الأنبياء، ويمكن أبني لك مقام .

كان هو يتمدد أو أنها مدَّدته وغطَّت بدنه دون وجهه بملاءة سندسية اللون لم أشهدها قبلاً، وبدا لي أنه كفَّ عن التنفس واكتفى بالإطلال نحوها. ولدهشتي لم أر أثراً للفطيرة أو الصحون أو القلة، اختفى كل شيء، كأنما انشقت الأرض وابتلعتها، هل كان كابوساً رأيته خلال تلك الساعات أم أنها كانت مجرد تهيؤات تخيلتها ؟

في الدرب قالوا بعد دفنه شرب فشرق فمات، وقالوا سكر مخالفاً شرع الرب وأكل وأكل فانكتم نفسه بينما كان نائماً ولم يصح بعدها، وقالوا إنه كان مبروكاً من أهل الخطوة طار نعشه متعجلاً الدفن، وقالت أمي إن الله أخذ من عمر الغريب وأعطاها، ذلك أنه في أعقاب ذلك قامت العمة وتحركت من مرقدها، حسبناها في أول الأمر مجرد واجبات تؤديها غصباً بسبب العزاء في المرحوم، لكنها استمرت وتزايدت حركتها على نحو كذَّب تأكيدات الحكيم، وكادت أن تصبح كما كانت عفية وصلبة وقادرة .

***

قال علام إن البك الشّلبي "كدَّاب زفة" وأنه لا يستحق كل هذا الاحترام، أكَّد لمن جاءوا يهنئونه بالخروج أنه كاد أن يخرج من القضية براءة لولا خيبة المحامي الذي اكتراه البك الشّلبي، ذلك الذي حسب أن له كلمة في الحكومة أو أنه معروف عندها، صحيح أن ابنه ضابط في الحدود وله زملاء ضباط في السجون أراحوه في الحبس وسمحوا له بالممنوع، لكن البك الشّلبي نفسه خيب كل رجاء:

– دا حتى ما خدش البهوية رسمي .

تململت العمَّة احتجاجاً، خافت أن يتناقل أهل الكفر كلامه فتضيع هيبة الرجل، تراجع علَّام :

– ولا يمكن خدها بس ما خدمنيش .

– قول كده بقى، قول انك منكاد منه .

– معلوم .. منكادع الآخر، ح أخبي عليكي ؟

– كفاره يا علَّام، دول كلهم سنة وتسع أشهر فاتوا ما حدش حس بيهم.

دارت عيناه في وجوه الغرباء، لعله كان يمنع نفسه من الاستمرار في السخط على البك شلبي على مسمع من الغرباء، ولعله كان يتذكر كيف أنه لم يسلِّم نفسه إلا بعد تأكيدات الرجل وابنه الضابط بأن القضية سوف تنتهي ببراءة، وربما كانت غضبته لأن الرجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب لزيارته في الحبس، كان يربت على ظهر شاكر الذي كان طفلاً ما زال ولا يدرك شيئاً مما

يقال، ربما لو كان أكبر بسنة أو سنتين لعايره الأولاد بحبس أبيه، ربما انكسر خاطره بينهم، لكنه كان معي، أحوطه وأحميه من مكائد الكارهين، استأذن الغرباء وسلَّموا وما تبقى في المندرة غير أولاد شلبي، نظرت هي إليه ملياً قبل أن تلومه :

– اللي مالوش كبير بيدَّور له على كبير يا علَّام، وكلامك عن البيه بتاعنا قصاد الأغراب ينزّلنا من نظرهم، ما يعملوش لنا حساب، داحنا نكبّره مش نقل قيمته .

– مافيش حاجة مستخبية يا عمَّه .

كانت أول مرة يناديها بالعمَّة، عله أرضاها بالنداء أولاً ثم كرَّر ما قاله بحماس أكثر وزوَّد عليه، ذكَّرها أنه يعرف أن ذلك الكبير مجرد رجل بارع في التعرُّف على الأكابر، بكوات وباشوات حقيقيين "سلّكوا" له مصالحه وأنه وإن كان قد زوَّد ملكيته في أرض البراري وعمل لنفسه فيها تفتيش فلأنها أرض مشاع قابلة للامتلاك بوضع اليد، وهي أرض فقيرة المحصول قليلة الخصوبة، فدَّان الكفر يساوي خمسين فدان فيها، حاولت إسكاته فلم يستجب وردَّد حكاية دخول ابنه الحربية وكيف حصل على كارت توصية من باشا كبير تعرَّف إليه مرَّة بتقبيل الأيادي، عاودت محاولات إسكاته فاستمر، طوَّل لسانه عليها فتدخَّل أبي يوصيه بأن يحاسب على كلامه فانفجر فيه وقال له مالا يليق :

– فضلت شايلك ومطاولك بمالي واسمي، عشت على حسّي في الكفر، والبندر سنين، سدّدت ديونك اللي خسرتها ف القمار وآخرتها إيه ؟ اتفقت

معاها وخدت الورق المكتوب عليك، زرتني ؟ كلفت خاطرك وجيتني انت ولا هي ؟.. ماتخلّي الطابق مستور ..

أطرق أبي مجروحاً وعاجزاً عن الدفاع وقامت هي محتجة تسب وتلعن وتقسم ألا تدخل داره .. وعندما خرج الجميع وبقيت وحدي في مواجهته كاد أن يضيف المزيد لكنه تراجع قبل أن ينفلت اللسان، سحب الولد في يده وخرج وما عاد إلا بعد أن انتصف الليل بزمان .

بعدها صارت حياتي معه على كفّ عفريت، لا أمان ولا اطمئنان ولا ثقة، كان يمنع نفسه من الكلام في الدار أو حتى مجرد شرب الشاي، يخرج وقتما يشاء ويرجع وقتما يشاء، بوزه ملوي والوجه دائم العبوس، ويوم مولد سعاد تحوَّل الأمر إلى محزنة، أول ما عرف أنها بنت صرخ محتجاً :

- بنت ؟

وسمعت خطواته خارجاً ولم يرجع إلا بعد أيام، هل كنت قد أفقدته آخر الآمال بولادة البنت على غير إرادة مني ؟ أو أنه كان يبحث عن أي شيء يتعلَّل به ليكمل حولي دائرة الخصام ؟ لا يكلمني ولا ينظر ناحيتي أو يطمئن على حال البنت، ضناه التي تتوجَّع وتصرخ وتحتاج إلى رعايته فيصم عنها أذنيه ويقسو عليها قلبه بلا ذنب، كان يحوّط الولد بذراعيه ويربت على ظهره في حنو وكأنه يعاندني باحتواء الولد وإهمال البنت، لا سألته ولا حاولت أن أطلب منه التفسير، كان يرجع في الليل حاملاً لفافة طعام من البندر، يوقظ الولد من أحلى نوم ويدعوه للأكل، حتى لو كان الولد شبعاناً يحايله أو

يجبره على تناول الطعام، ويوماً في إثر يوم اجتذب الولد إليه، يأخذه ويسهر به حتى ساعة متأخرة، لا أدري أين ولا يتيح لي فرصة الاعتراض فاطمئن نفسي بنفسي لأرتاح من قلق يساورني ويشقيني، ومرَّت الأيام انعزالاً بلا رجاء، كبر الولد وملأت البنت أركان الدار رمحاً وثرثرة وهو يرقبها من بعيد، كأنها لا تخصه، إن نادته يتشاغل وإن رد فبجفاء أو اختصار، هل كانت في الثالثة أو الرابعة يوم ضحك لها أول ضحكة ؟ ربما أجبرته خفَّتها على أن يجاريها فاستبشرت خيراً وفي الليل حدَّثني عن ضرورة وضع نظام جديد للدار فلم أمانع :

– الولد ح يدخل المدرسة، وأنا مش ح أسرح بيه ليل ونهار .

– محدش قال كده .

– يكفيكي ربع جنيه في اليوم ؟

– يكفي .

– تمسكي إيدك شويه ف مصروف البيت .

– أكتر من كده ؟

– الكسوة في القطن .

– ومن غير كسوة خالص .

كنت غاضبة، كأنه يجود علينا بثمن اللقّمة ويمن عليّ بمطالب العيال، لكنني كنت راغبة في استمرار الحياة، قلت أدبّر حالي في حدود المصروف،

أربي البط والحمام والأرانب والكتاكيت وأعتمد على شغل الدار وشقاء من يحكم عليها الزمان بقلة القرش في متناول اليدين، واستمرت الحياة مستورة لا تنكشف أسرار الدار، حتى عندما كان يتعمد أن ينقص القروش بحسب هواه لا أتشكى ولا أبوح، أتحامل من أجل الأولاد، ومن تعبي كنت أوفر القرش على القرش، ثمن البيضة والفرخة والبطة والأرنب، اشتريت ماكينة الخياطة وعلمت نفسي بنفسي تفصيل الملابس للأولاد ونسوة الدرب، وكلما وجدني قادرة على تدبير مطالب الدار كفَّ عن دفع المصروف، أفاتحه فيلاوعني :

– مصروف إيه اللي أنتي عاوزاه ؟ دانتي داخل جيبك النهاردة نص جنيه، فاكراني نايم على وداني؟

لا أجادله، أقول لنفسي مادمت مستورة فلا داعي للقرش الذي يقطعه من جلده بطلوع الروح، أقص جلابيب النسوة والأولاد وأدقَّها على الماكينة وأقبض، أشتري السكر والشاي والأرز والزيت من الدكان مثل الغرباء، وعندما مزَّق الولد جلبابه حاولت أن أزوّد وعيه، كيف أنني أشقى وأبوه لا يشغل نفسه بمطالب الدَّار لكن الولد ردَّ عليّ بسفالة :

– وإيه يعني ؟ اشتري غيرها .

– منين ياشاكر ؟

– من فلوس أبويا، مش تحمدي ربنا اللي معيشك عشان خاطري ..

كلام كبير على الولد، كلام محفوظ، كأنه رمى على رأسي لتر "جاز" وأشعل فيه النار، قمت أبحث عن عود حطب وأضرب الولد طويل اللسان، وكلما ضربته بعود الحطب طوَّل لسانه أكثر بكلام لابد أنه كان يسمعه ويردّده دون أن يدرك معناه، كنت في غير وعي حتى انزرع علَّام أمامي، ضربني بكل غل فأدمي فمي، شعرت بأسناني تنزف وبواحدة منها تسقط في فمي، واستمر يضرب ويضرب، يسب ويلعن ويعاير ويتهم ويقول مالا يقال، وعندما أتعبه الضرب جلس وعيناه تنضحان كراهية لم أشهدها في عيني عدو أو حبيب .

كانت الدار مزحومة بالنسوة والرجال وكنت تائهة وهم يحاولون معالجة جرح الفم النازف والسن المكسور، ترك هو الدار ساعة أو ساعتين، كانت أم بكري بجواري، تجاملني وتحاول أن تداري شماتتها فلا تفلح، وعندما دخل المندرة حاولت هي أن تفتح معه الكلام فأخرج ما كان مدفوناً في أعماقه :

– أنا ما حيلتيش غيره، تضربه إزاي ..؟

– مش ابنها ياسي علَّام ؟ طيب دانا ياما ضربت بكري اللي أنت بتشوفه ده .

– مش كل الناس، دي حيا لله ماعون .

– يوه .. جرالك إيه ياسي علَّام .. دي أمه مهما كان ..

– وإيه يعني .. طيب ما هي عندها شحط ماتعرفش فين أراضيه، اسأليها إن كانت تعرف شكله إيه؟ هي الحنيّة كلام وبس ؟

– دانت شايل بقى ومن زمان ..

قالت هي وقد زادت نغمة الشماتة، ولم يكن عندي غير ترك المكان، جمَّعت ثيابي في صرَّة وهي تحاول أن تمنعني بالكلام وتدفعني في حقيقة الأمر إلى ترك الدار :

– طيب خليكي للصبح .. النهار له عينين .

– سيبيها يا أم بكري ..

– دي دار أبوها خراب، ح تروح هناك تسخم إيه ؟

– سيبيها يا أم بكري .

وخرجت بالليل، كنت أتعثر في خطواتي وأوشك على السقوط لعلني بالفعل سقطت فارتكزت على ركبتي وواصلت المسير حتى وصلت، دخلت الخراب، مجروحة ومهانة وعاجزة عن البوح لمن كانوا سبباً في العناء، والبنت معي، لا أعرف كيف جاءت ولا أذكر أنني كنت قد فكرت في أخذها أو تركها، كأنها كانت مربوطة معي بخيط خفي لا ينفك، رقدنا بالهمّ حتى طلع صباح مضبَّب، أمي بطرف طرحتها التي تشد بها دماغها كأنما تخشى عليه من الضياع، وأبي بشلل ساقه وذراعه ونصف وجهه واللسان، هل اعتذرت عينه القادرة على الإطلال عن الخطأ القديم الذي لا يداويه طب ولا دواء هل كان يستدر عطفي لأغفر له ما وصل إليه حاله أو يشركني في همّه، كان هو وهي سبباً في ميلة البخت منذ البداية لو لم تمتد يده ليأخذ مصاغي ويخسر

ويأخذ مزيداً ويبيع ويخسر ويأخذ ويكتب دون أن يفكر في السداد ما وصل حالنا إلى ما وصل إليه، لو أبقى على الدار ما نزلت عند علّام من فوق الرأس إلى أسفل القدمين .

وكأنما كان علام يصفّي حسابه القديم مني، لا سأل ولا أرسل من يسأل، كأنني سقطت في جُبٍّ مكسورة القلب وواحدة من الأسنان، طالت غضبتي، دارت السنة أو أوشكت على الدوران، أرسلت عشرات المرَّات أطلب ماكينة الخياطة فما جاءني رد، طلبتها منه مراراً فاخجلني بالرفض أمام الغرباء.. وكابدت شقاء الأيام السود وقد عزَّ كل شيء، اللقّمة والهدمة وجرعة اللبن للبنت، فكرت في العمَّة، تلك التي خاصمت أبي وقاطعته بعد أن أخذ من صندوقها تلك الأوراق الملعونة التي احتفظت بها باعتبارها كبيرة عائلة مأمونة فخاب فيها الرجاء، عندما ذهبت إليها قابلتني بجفاء وحدثتني بغلظة، أعلنت أنها تبرأت من أبي ومن كل نسله فانكسر خاطري ورجعت من دارها وقد انسدت الدنيا في وجهي من كل الأركان، حتى تربية الكتاكيت لم تنفع لأن الفئران والعرس كانت تسكن الدار وتقضي على الطيور، رغيف السن وقطعة اللفت غذائي، وكل ما أوفره لا يكفي ثمناً لقطعة السكر وجرعة اللبن للبنت كأننا انقطعنا من جذورنا فما عاد يطلّ علينا أهل ولا غرباء، حتى نعمات التي بعثت لها رسالة لم تسأل، ولا أدري إن كانت الرسالة وصلتها أو أنها تاهت في البريد، وعلّام عارف دون ريب ما صار إليه حالنا، سارح بالولد في الدرب ومسيطر عليه بحيث لايلتفت

إن رآني، ولابد أنه عبأه بأكاذيب محبوكة عني لا يملك أن يخلص منها، ولا أملك غير الانتظار ليوم يجيء أطلع فيه من عمق الكابوس الممتد، كابوس الفقر والعوز محاطاً برغبة التماسك وبقايا إصرار على عدم الانكسار التام، ولا أذكر في أي ليلة من ليالي "برمهات" سمعت صرخة أمي المفجوعة فيه بوهن، أذهب لأراه ممدداً على فراشه فأخبط صدري مصدومة بالموت الذي أراحه وحطَّنا في مواجهة مطالب التكفين والدفن وطلوع المواسم من خراب الدار، لكنهم شالوه وتحدثوا عن كرامته ونزاهته في الزمن القديم، قبل أن يفرّط في كل شيء، أبواب وشبابيك وعروق سقف داره، دكانه وتجارته وماله الذي رماه في مجالس الشرب والقمار، ولم يكن هناك غير مندرة واحدة مسقوفة بلا باب وقاعة مدفونة تطل على فراغ الواطية استخدمناها في الزمن القديم للخزين، وبقايا جدران من الطوب الأخضر تتقافز عليها الكلاب الغريبة في وضح النهار، وما تبقى لي غير القدرة على الاحتمال، مجرد الاحتمال .

***

خلت عليها الدار فكانت تستدعيني لألازمها أكثر الأوقات، تكسيني وتزوّد مصاغي، تشجعني على إعداد الطعام بإشرافها وهي راقدة على فراشها، مرضانة أكثر الوقت ينتابها صحو لا يدوم، إن جاءها الزوَّار تماسكت وجلست فبدت لي ملكة من بنات الملك الشّلبي في حواديت الجد هارون، ملكة لها شعر أصفر غزير مضفور في ضفيرتين طويلتين، تجلسني بعد رحيل الكل إلى جوارها وتؤكد لي أنني كنت شاطرة، تحوطني بذراعيها

المكتنزتين وربما تعابثني فأضحك وتضحك، أتمدد إلى جوارها وقد أشعر بنشوة وأنا بين الصحو والغفلة، أتشمم رائحة أنفاسها وهي تحادثني .

– شاركت لك على عجل بقر باسمك ف دار زينهم السّاكت .

– كتَّر خيرك ياعمَّه .

– وح أكتب لك أرض باسمك لجل تبقي مسنوده، خايفه أموت قبل ما أشوفك ف بيت العدل .

– يديكي طولة العمر .

– كبرتي يا شوق وبقيتي عروسه، ورِيني كده .

– لسه بدري ..

– ابن عبدالقادر كان فايت من النواحيدي ليه ؟

– وأنا إيش عرفني ؟

– صحيح سايب بنت عمه وقاعد في مصر ..

– .....

ربما أغفو إلى جوارها، وربما أسرح بخيالي في البعيد، أفكر في الأرض التي وعدت بكتابتها والمواشي التي شاركت عليها باسمي، أمني نفسي بزمان من الهناء والمتعة مع صاحب النصيب كما كانت تقول، ورغم طول مدَّة مرضها كنت أرى في عينيها الخضراوين بزرقة إصراراً على البقاء يرفض أن يبدو عليهما الوهن .

يوم "سبت النور" قامت من مرقدها قبلي، كحَّلت عينيها وجلست في صحن الدار، نادتني فقمت، طلبت فطوراً من قشدة وجبن قديم وبيض مقلي بسمن وعسل نحل، كانت تأكل بشهية وتدعوني لمشاركتها، قالت إنها تشعر بتحسن وإنها خلصت من زمن الرقاد، فرحت بصحوتها وجلست أتسمَّع لكلامها عن قسوة الوجع الذي كانت تداريه :

– دانا كنت شفت الموت بعيني ومداريه عشان ما أزعلكيش .

– حمد الله على سلامتك .

– عاوزاكي تحشي لنا جوزين حمام بالفريك .

قالتها بصوت بدا لي غريباً فتحيَّرت، ربما كنت أفرُّ من المكان وأنا أبحث عن الزغاليل في "بناني" الحمام، وعلى غير توقع رأيتها قبالتي وفي يدها سكين الذبح يلمع نصله في شمس الضحى والدار ساكتة إلا من صوت الذباب الأخضر الذي لابد وأنه جاء من ناحية المدافن، كنت أمسك لها رءوس الزغاليل فتقطعها قطعاً وتأمرني بأن أرميها خلافاً لما اعتادته عندما كانت تحرص على ابقاء الرأس معلقاً بجسم الطائر، جمعت الزغاليل في غربال ووضعته على ظهر الفرن، أشعلت نار الكانون ووضعت الماء، خفت عليها من وقدة الشمس التي حميت فطلبت منها أن ترتاح في الظل فبدا لي وكأنها لم تسمع أو سمعت ولم تهتم، جلست "أسمط" الزغاليل واحدة في إثر واحدة في الماء المغلي:

– اللي تنضفيها هاتيها أطلَّع لك حوصلتها .

كان صوتها يزداد غلظة إلى حد أخافني فلم أعارض، كنت أناولها الحمامات في صمت فأسمعها تتكلَّم مع الطيور التي تتصايح وتتقافز في وسط الدار، أطرد من ذاكرتي كل الحكايات التي سمعتها عن الجن وعفاريت الظُهر الأحمر، أتمنى لو تسكت أو أجرؤ على طلب سكوتها، لكنها كانت مستمرة، فكرت في البحث عن حجة أخرج بها من الدَّار فلم أصل إلى سبب معقول يمكن أن يقنعها، ربما لم أكن خائفة من حديثها الذي لا يليق للطيور وكأنها بشر يعقلون، وإنما هو ذلك الفحيح الغريب والنبرات الجافة التي تخرج من حلقها على هذا النحو لأول مرَّة، لعلني حبست صرختي المستجيرة خوفاً من فضيحة تنالني وتنالها إذا جاء الغرباء، كنت محبوسة في اختياري لسكة الاحتمال، أن أحتمل حتى لا تصفني هي أو غيرها بالجنون، ربما تفزع هي إن فعلت وتندم لأنها أختارتني لها ابنة وعوضاً عن كل عمرها الضائع بلا خلفة، وكيف لا أحتملها والكل يعرف بمرضها وليس على مريضة مثلها من حرج، كان الحمام المحشي يطيب والعرق يشملني وربما ارتجفت أصابعي وأنا أختبره :

– إن كان استوى هاتي فرده .

قالتها بنفس الصوت فانتشلت واحدة ووضعتها في صحن غويط قدمته لها وصاح الصحن يلسعني، أخذتها في قبضة يدها اليمنى دون أن يبدو عليها أنها تأثرت بالسخونة وراحت تقضم منها والدخان يخرج من فمها مع كلماتها وهي تمضغ، وقبل أن تكملها قالت بنفس الصوت :

– هاتي فردة تانية .

كان صمت وسخونة وصهد شمس قيلولة وصوت غليظ وعينان تطلبان وفم يبتلع النار ولا يخشاها، وفي القلب رعب من أن تكون تلك الجالسة أمامي واحدة من تحت الأرض على شكل العمَّة، ربما لو دخلت المندرة أرى عمتي وأحتمي بها من تلك الغولة المتربصة لي تحاصرني بطلب المزيد وأناولها وتبلع حتى أتت على ست حمامات محشية بفريك وسألتني .

– فاضل ف الحلة يابت ؟

– لأ ..

قامت ومشت أمامي ثم دخلت المندرة وتمددت على فراشها، لعلها أسبلت عينيها وأغفت فرأيت العمَّة وطردت في ذاكرتي تلك التي لابد أنها ما زالت في وسط الدار تقلب في الحلة التي تغلي على الكانون، تبحث عن بقايا الفريك الساكن في قاعها لتبلعه .

جلست على الأرض أقاوم الرجفة التي سكنتني حتى تقلبت هي وقالت بصوتها المألوف بينما تجلس :

– هاتي القلة .

ناولتها القلة فشربت وشربت حتى أفرغتها في جوفها، هل بردَّت بالماء سخونة الأحشاء فعادت كما كانت تبتسم وتبعث في قلبي الطمأنينة؟، تجشأت فشممت رائحة "تقلية" ثوم محروق قبل أن تعاود الرقاد في سكينة.

في الليل قامت من رقدتها، جلست وسط من جاءوا يهنئونها بسلامة

القيام من رقدة المرض، أمرتني فسقيتهم من شايها وسكَّرها، أطعمتهم من كعكها وتمرها المخزون وسمعتهم يتهامسون في الأركان بأنها مثل القطط بسبعة أرواح .

***

كبس المخبرون على الدكان وحوطوه وبعث الضابط شيخ الخفراء يطلب مني المفتاح، كان يرتجف وهو يحادثني :

– بايِنُّه بلاغ تموين ياست أم شاكر، هاتي المفتاح ..

أخذت المفتاح بنفسي وذهبت، سألني الضابط عن علام فقلت له غير موجود، قالوا له إنه ترك المفتاح معي فطلبه وطمأنني، فتح ودخل مع المخبرين .. قلّبوا في الأركان وخرجوا ومعهم شيء ملفوف في كيس قماش، عاود الضابط سؤالي عن علام فجاوبته بعدم المعرفة، همس في آذان المخبرين والعسكر فوقفوا في الأركان، سألته عن غرضه فلم يكشف لي سر التفتيش أو الانتظار، لمحت زعتر المواوي وأنا راجعة ارتجف من الخوف فطلبت منه أن يبحث عن علَّام في السوق ويخبره بما جرى، وجلست انتظر، في العصر طلبوني وسلموا لي مفتاح الدكان وأوصاني الضابط بإبلاغ علَّام ضرورة أن يسلّم نفسه، ركبوا البوكس وطلعوا من الكفر، قال الناس إنهم ضبطوا في الدكان مخدرات وقالوا أوراق عملة مزورة وقالوا ممنوعات وقالوا سلاح بدون ترخيص وكثر كلام الناس وظللت سهرانة وحائرة وعاجزة عن تصديق ما كانوا يرددونه من أن الأمر لا خطر فيه، حتى دخل زعتر المواوي

وهمس في أذني :

– لقيته في بيت الدبّاغين وقلت له، بيقولك ماتقلقيش لو بات ليلة ولا اتنين أصله ح يروح للبيه ف البراري ..

وفاتت أيام رجع بعدها علَّام متخفياً في الليل، دخل صامتاً ثم جلس، لامني لأنني سلمت لهم مفتاح الدكان فلم أدافع عن نفسي، استمر قلقا، يطل من جنب النافذة ويتأكد من خلو الطريق من الأغراب :

– دي تهمة باطلة ومتلقحه علينا .. مخدرات إيه وبتاع إيه، حد عامل فينا بلاغ .

– مين ؟

– وأنا إش عرفني وأنا كنت أجيب أجله ..

– والعمل ؟.

– المحامي ح يكلم البيه بعد ما يطّلع ع الأوراق .

وعشنا أيام القلق، إن دخل الدار غريب يختبيء في الزريبة أو يطلع الكرار، يلبد فيه ولا ينزل إلا بعد الاطمئنان من خلو الدار .. كان يتشكك في كل خطوة تقطع الدرب ويتهم الجميع أقارب وأغرابا حتى جاء البك الشّلبي ونصحه بتسليم نفسه، طمأنه بأن المحامي سيخرجه من القضية مثلما تطلع الشعرة من العجينة أوصاه بأن يقول إنه كان مسافراً ولا يعرف شيئاً عن الموضوع وأنه لن يتكلم في غير وجود المحامي ..

لم يطمئن قلبي رغم كل التأكيدات بأنهم لن يحبسوه، وعندما ذهب بنفسه ليسلّم روحه بكيت ظلم الخلق وعداوة الكارهين، وقف حالنا أياماً وأنا حائرة كيف أتصرف حتى همست لي العمَّة بأن أقف بنفسي في الدكان أبيع وأشتري، وافقتها وفتحت الدكان، وكان خوفي من القضية كبيراً، كنت أزور علّام وأنفذ كل طلباته من خير الدار والدكان، أدس في يده الجنيهات ليشتري راحته حتى يخرج من الحبس بسلام، كان هو بنفسه يطمئنني في كل مرَّة على المصير وكيف أن المحامي شاطر ومعارف البك سوف يسهّلون له كل الصعاب، أبدى استحسانه لأنني فتحت الدكان، كان يسألني عن الولد بلهفة فأطمئنه، يحذرني من اصطحابه معي حتى لا يراه محبوساً يتحكم فيه العساكر والمخبرون .

قابلني البكري وأنا راجعة، رآني وهو جالس على المقهى في أول سكة الكفر فقام .. حمل عني بضاعة الدكان في صمت وسألني عن حال علّام، طمأنته بأنه بخير وأن المحامي وعده بالبراءة كما وعده البك :

– براءة إيه بس .. دي القضية لابساه .

شعرت بوجع في بطني وصداع في رأسي، كانت في ملامحه شماته زوَّدت كراهيتي له، لكنني تماسكت، قلت لنفسي أجاريه وأشتري منه لأعرف ما يعرفه وربما يداريه إن أبديت غضبي، قطع على سرحاني :

– لا كان لكي ولا كنتي له .

– نصيب يا بكري .

– أهو انتي فيها .. دا كل يوم مغضبك ومش عامل قيمه لحماه .. فاضحه ف كل الناحية .. وإيه يعني لما يكون إداه قرشين سلف ..؟ يكسر رقبته ؟

– أيوه غلطان يا بكري .. خدهم يعمل بيهم إيه .؟ ضيعهم في الخسارة.

– ما حدش قال حاجة .. بس يكتب عليه ورق ويبيعه حتة الأرض، مالكيش عنده خاطر خالص؟ مخلفه له ولد زي خلف الملوك، واخداه على عيبه، دا واخد قبلك تلاته ما خلفش منهم ومبقالوش سعر غير بعد ما خدك.

– نصيب بقى .. منهم لله اللي كانوا السبب .

– عارف، هو ح ياخد حكم ح ياخد حكم، ساعتها تطلبي الطلاق ..

– طلاق ؟.

– أيوه .. وتشوفي حالك، عارفه الورق اللي مكتوب على أبوكي فين ؟ في دولاب الحيطه .. عند عمّتك فطوم .

– عمّتي ..؟

– أمال انتي نايمة على ودانك، دي وصولات أمانه تودي في داهية .. وشيكات على بنوك، هو انتي أبوكي له فلوس في البنوك ؟.

– لأ ...

كان يبدو كما لو أنه اندفع وباح بأسرار خطيرة بلا مقابل، وكان يرغب في أخذ الثمن ولا يعرف كيف يطلب :

– أنا لولا باعزك طول عمري ماكنتش أقولك على حاجات زي دي .. إنما انتي أختي مهما إن كان.

جاريته فاستمر يحدثني عن تجارة علَّام المكشوفة في الصنف، عن علاقته

بأولاد الدبّاغين وخطورة الاستمرار معه وهو يمشي في سكة الخطر. كل ما فعلته هو أنني سايرته، وربما تعلَّمت في ذلك المشوار درساً لن أنساه، فأي رجل في كفرنا جاهز دائماً للبوح بأخطر الأسرار إذا صادف المرأة التي تعرف كيف ومتى تدفعه لأن يبوح، وعرفت أنه ليس بخسارة السمعة أو الخلاعة في القول أو السلوك فقط تستطيع الواحدة منا أن تستخرج المخبوء، ففي وسط ناس مثل ناس كفرنا يلزم أن تحتاط الواحدة لنفسها من مطامع الخلق في الأزمنة الصعب أكثر من المألوف، وأن الحرص لا يكون فقط من الغرباء وإنما من أقرب الأقارب أكثر، لقد كان يتخيل نفسه أبو زيد الهلالي وعنتر ابن شداد عندما ابتسم له مجرد ابتسامة فيفاجئني بمزيد من أسرار الكفر لينال دهشتي، مجرد الدهشة .

عندما بانت بيوت الكفر خلف الزراعات رغبت في أن أبعده عني دون صد، ربما أحتاج إليه رغم كراهيتي له، قلت أحذره :

– ما بلاش ندخل الكفر مع بعض يا بكري، أنت مايرضيكش الناس تتكلم عن بنت خالتك، يا تسبقني يا تتأخر عني .

– وماله ياختي، وماله، عين العقل برضه، أنا ح أركن هنا واتفضلي انتي.. الحاجه ح توصل لحد عندك .

تباطأت خطواته التي كانت توازيني، فكرت أنه احتفظ بالبضاعة لكي يأتي بعد ساعة ويصدّع دماغي بالمزيد من الحكايات، كان قد زرع الشكوك في دماغي بالقدر الكافي، وكنت متأكدة أن كلامه لم يأت من فراغ، ربما هو نفسه

كاتب البلاغ، وربما يتاجر في الصنف، تغيرت أحواله، لبس الصوف وحط في إصبعه خاتم ذهب وداوم على نزول السوق، يشتري المواشي ويبيع بعد زمان كانت أمه تصرف عليه وتتشكى من قعوده على بوابة الدرب لا شغلة ولا صنعة، ينتظر موسم الحصاد وسرحان أمه في الأجران تنسف القمح قبل تعبئته في الأكياس، ابن النسَّافة يضع العباءة فوق الكشمير مثل الأكابر ويحرضني على الزوج أب الولد لأطلب منه إن حبسوه الطلاق، قلت لنفسي أسيّره بحسب إرادتي وهواي، وقلت لن ينال مني أكثر من أن أمنحه مجرد استعدادي لسماعه دون نفور وابتسامة دهشة تدعوه للبوح بأخطر الأسرار وقول المزيد .

***

كنت في المقعد البحري أطل على الدرب، رأيته بالمعطف فوق الجلباب يطل هو الآخر بطرف عينه ناحية الشباك، كان طربوش النسر على رأسه والعصا "المحلب" في يمينه يحركها مباهيا وكأنه يشهدني على قدرته في تحريكها، تباطأت خطواته وحط يمينه في جيب صداره وأخرج الساعة المربوطة بسلسلة تلمع، داس عليها فانفتح غطاؤها وبانت عقارب الساعة، رفع عينيه ناحية الشباك ليطمئن إن كنت أراه وابتسم، انسحبت للخلف وأنا ألهث في ارتباك وحيرة، وعندما عاودت الإطلال رأيت ظهره وهو يخطو ناحية الدكان بطوله الفارع وعصاه الضارب فوق أرضية الدرب بخفة، وعندما انحرف ناحية "الشرم" جلست وأنفاسي تتلاحق، لا أدري خوفاً أو

قلقاً أو فرحة، تنحنح البكري فقطع خيطاً منسوجاً بمشاعر أجهلها وأود لو امتدت أطرافه :

– ابن عبدالقادر ابن الجن الأزرق مايفوتش من هنا .

سمعت صوت بكري فنظرت لأراه واقفا مع ابن الجازية الكبير، أطلا ناحيتي فشعرت بنفور، جلست ولم أعاود الإطلال إلا عندما سمعت صوت العصى ترتطم، كان هو بينهما بعصاه وعلى وجهه ابتسامة واثقة، وببوز الحذاء "الأجلسيه" شنكل ابن الجازية وأصبح همه أن يطول دماغ البكري حتى جاء أبي، وكفَّت العصى عن الارتطام ..

– يا بني دانت اللي ما يعرفك يجهلك، دا إن ماشاليتاكش الأرض نشيلك على دماغنا من فوق، داحنا أهل وحبايب .

كان أبي يحادثه وكان البكري واقفاً بصفرة وجهه المغلول ينهج وخلق كثار من أهل الدرب يحوطونهم ويطيبون خاطره، دعاه أبي لشرب الشاي فاعتذر ورأيت وجه العمَّة يهل ويدخل دائرة الزحمة، نظرت إلى الشباك فقالت عيناها كلاماً أخجلني، هل كانت تلومني لأنني كنت بحساباتها سبباً في عراك بين البكري وابن عبدالقادر، أم أنها كانت تبارك ما قاله أبي وهو يودّع الغريب عن دربنا برقة، ذلك الذي تحدثوا عنه بليل وهم ينظرون ناحيتي دون أن يتوجهوا إلي بلوم أو اعتراض .

***

قالت أمي :

– علَّام رجع لشرب المدعوق .

كأنها أسقطت فوق دماغي جداراً من طوب أحمر أو سقف مندرة مسنوداً على كتلة حديد، أوصتني أمي أن أحذره وقد صار له ولد، ذكَّرتها باعتراضي فتجاهلت كل ما كنت أقول :

– الحكومة اليومين دول بتقفّش الناس عمال على بطال .. اللي بيتاجر فيه واللي بيتعاطاه .. أنا قلت لك وانتي حرَّه .

قالت ثم قامت، رمتني في البحر مكتوفة وطالبتني بالعبور إلى الشط البعيد، جاءني بعد أذان الفجر بعوده النحيل عاجزاً أن يصلب طوله، أبدى دهشته لسهري ولهفته على الولد الوليد، اقترب منه يطمئن عليه ولم يكن مالكاً لوعيه :

– جراله حاجه الولد ؟

– لأ ..

– أوعي تقولي سهرانه أستناك .. دي تبقى القيامة قامت .

– كنت فين لدلوقت ..؟

– انتي ح تحاسبيني ؟ كنت مطرح ما كنت .

قالها بوعي وعناد أغاظني، كنا قد اتفقنا أن يمشي في الطريق المعدول، أن يترك المفاسد القديمة، هل كان يريحني ويريحهم ليصل إلى غرضه ويفعل بعد أن يتمكن مني ما بداله ؟ وهل أخطأت عندما طاوعتهم وكذّبت مشاعري بالخوف من أنه لن يفي بالوعد وإن حلف على البخاري ؟ طالبني وقد طلع

النهار أن أجهز له العشاء، أي عشاء ؟ فطورك عشاء وعشاؤك غداء وأنا الملامة دائماً .. دائماً يلتف حولي مثل ثعبان بارع، يخطىء ويسب ويلعن وأحياناً يضرب ثم يخرج من جعبته كلاماً باطلاً يلبسه ثوب الحق فأصبح غلطانة، أغضب ويصالحني بوعود ولا يمل الاعتذار .

في دارنا قلت إنني لن أطيق مزيداً من الاحتمال، استشهدت بما قالته أمي أمام أبي والعمَّة فأنكرت أمي أنها قالت، عجبت لأمرها، تخافهم أو تكذب، نظرت إليها العمَّة تلومها لأنها باحت لي بسر معروف للكل ما عداى، كان أبي يطل فقط ولا يتكلم .. تتكلم العمَّة تحاول تهدئتي مثل كل مرَّة لكنني صرخت :

– مش ح أرجع له .

– والولد ..

– الولد معايا ..

– أهو كلام .. ما تقول لبنتك يا عبد الستار.. أبوكي غرق ف الدين، مانفعوش غير علَّام .. كاتب عليه وصولات .. لو عاندتي ح يبيَّعه الأرض والدار والدكان .. ومش بعيده يحبسه كمان ..

نظرت إليه وهو ساكت بعجز، مطرق برأسه لا يواجهني، كأنني نذرت نفسي للاحتمال من أجله رغم إرادتي، وكأن العمَّة نفسها تواطأت ضدي وضد أبي لحساب علَّام، فجهزت نفسي للعودة إلى داره مغصوبة وعاجزة وقد سقط آخر جدار كان يداريه ويداريهم، وتبدَّى لي أن حياتي توشك على

الإنتهاء، وأن إرادتي ليس لها عندهم حساب.

***

نعمات طلبها ضابط الحدود ابن البك ساكن البراري، جاءوا بعشرات الجمال يركبها عسكر الحدود "البرابرة" ازدحم الكفر بهم والأهالي معهم وحولهم يضاحكونهم ويقلدونهم دون خوف من كرابيج أو أوامر بالرقاد في الدور بعد العشاء، جاءت الغوازي من أرض البراري بثيابهن الشفافة المشغولة بخرج النجف والترتر والخرز الملون، يرقصون عند بوابة الدرب وعلى أبواب الدور، وناس الكفر يتوافدون يهنئون ويلعبون بعصيهم أمام البك وابنه عزيز ببدلته الحربية والتاج على كتفيه ذهباً خالصاً، وعمَّتي فطوم ترقص عند بابنا وتميل فتفتن القلوب وتكيد الأعادي والناس تتمنى لي فرحاً مثل فرح نعمات :

– لو كان له أخ كان خد أختها.

ولف في دروب الكفر "نقرزان" على جمل وخرجت البنادق والمقاريط غير المرخصة وانطلقت الأعيرة، وجاء خلق كثار وعند الدوَّار وقفت أول عربة ملاكي تدخل الكفر وتمشي بالبنزين ولا يجرها خيل ولا حمير فكانت عجيبة مثل تلك التي يملكها الباشا كبير البندر ساكن مصر، كانت ليلة لا شاف مثلها أهل الكفر ولا سمعوا، وفيها رأيته خلف أبيه عبدالقادر بطربوش النسر والجلباب "السمني" والعصا الأبنوس، دخل دارنا وتهامس وهو في المندرة مع أبي بكلام .. وهو خارج بحثت عيناه عني حتى رآني .. ابتسم

وأشار بيده الخالية ولعله قال كلمة لم أسمعها قبل أن يخرج في أعقاب أبيه ..

– عقبالك يا شوق .

قالتها أم بكري فشكرتها، استمرت وهي تضحك :

– ح ناخدك لبكري .

تركت المكان ولم أرد .. في الزحمة همست أمي :

– كانت بتقولك إيه ؟

لم أرد، أطرقت في ضيق :

– دا لما يشوف حلمة ودنه .

قالتها وتركتني، ربما فاتحتها أم بكري ولم توافق وربما كان في دماغها كلام لم تبح به وسط الزحام، لكنني شعرت براحة وتأملت وجه نعمات الحلو الذي زوَّقوه بالأحمر والأبيض وهي تجلس إلى جوار ضابط الحدود .

في اليوم التالي شالت الجمال شوارها من نحاس وثياب وفرش وداروا به في دروب الكفر قبل الرحيل، وفي العصر سافرت نعمات مع العريس، بكيت من أثر الفراق فداعبتني العمَّة في حضور أبي وأمي :

– بكره تحصليها، هو مش طلبها يا عبدالستار ؟

– طلبها .. بس أنا اتزنقت ف شوار نعمات، اندينت يافطوم لجل أطول رقبتكم ف أرض البراري..

– إن كان على شوق .. جهازها وشوارها من كله من عب عمّتها .. بس

هي توافق ع العريس ..

قمت خجلانة وفرحانة ومطمئنة وحالمة بوجه صاحب النصيب .

***

فرحته بالولد طيَّرت عقله، كان يتمدد إلى جوار الولد ساعات وساعات، يتأمله ويتحسس بدنه الطري ويكاد أن يعد أنفاسه، طلع لي من تحت جلده علَّام جديد، كأنه طفل انقلب ميزانه وعجز عن إخفاء فرحة عمره، لازمني في الدار وأهمل تجارته، يرجوني أن أرضع الولد إن بكى، وإذا أغفى راح يتأمله ويدعوني لكي أراه، كان يتمنى أن يراه جالساً أو زاحفاً أو ماشياً على قدمين قبل الأوان، كنت أهدئه وأكلمه وهو الكبير وكأنه صغير فاته أن يعرف أن الصغير مصيره أن يكبر وأن الأيام تمضي وأن طول الصبر يبلغ الأمل، كان يبدو لي مثل طائر يسكن العش ويحوط فرخه الوحيد بجناحيه، يخشى عليه من نسمة الهواء، يترقبني وأنا أغيّر ثيابه يتحسَّس الماء الفاتر الذي أجهزه لتنظيفه مخافة أن يكون أكثر برودة أو سخونة، كان يمنع أي واحدة من حمله إن حاولت ويهمس في أذني :

– الخلق مالهاش أمان .. واللي بيكره أكثر م اللي بيحب .

كان على استعداد لفعل أي شيء من أجل الولد، طيب وحنون إلى أبعد الحدود، لعلني أيامها لمت نفسي لأنني رفضته زوجاً في أول الأمر، لعل كل ما كان يتبدى للخلق من طباعه كان مجرد ضيق أو حزن لأنه فشل في السابق أن تكون له خلفة فلما تحقّقت زالت أسباب الضيق والحزن القديم وجاءت أيام الفرح .. يوم حدَّث العمَّة طالبا الزواج جاءت وأبلغت أبي، وربما كانت

هي المرَّة الوحيدة التي جرؤت فيها أمي على الاعتراض :

– لأ .. مايا خدهاش أبداً .. دا زي التعلب الدحلاب، مايخدهاش ..

– مريم ..

قالتها العمَّة بدهشة فاستمرت أمي ..

– لأ يا عمَّه .

– لأ ف عينك – انتي انهبلتي ؟

– أيوه انهبلت.

قالتها وقامت واستمرت في الاعتراض بعيداً. أذكر أنها قالت أنه مثل الحيّة الناعمة التي تزحف على بطنها لتصل إلى غرضها دون أن يحس بها أحد وأنه كبير في السن وبارع في الملاوعة ولا أمان له، يومها خفت، لكنه شاكر أزاح كل الخوف وجعلني وهو الطفل الوليد أصدق ما كانت تقول به العمَّة من أنه وحيد وراغب في خلفة من صلبه تبدّل حاله وتفتح له السكة لكي يريح ويستريح .

***

يومها كان الولد على صدري، سلاحي وسندي حملته وطرت، لا أعرف كيف خرجت من الكفر قبل طلوع الفجر، كنت طائراً مذبوحاً بسلاح ماض لا أتحكَّم في أطرافي، أحس آلام الجرح ولا أكف عن الحركة، أطير وأحطّ والولد على صدري، أحميه وأحتمي به من لفحة الشرد والندى يتساقط علينا نقاطاً متتابعة من بين فروع الشجر المزروع على شط ترعة الريَّاح القديم، ركبت مع العربجي. الذي بكَّر بالذهاب إلى سوق البندر لينقل بضائع

تجار الكفور والبلدان، خفت أن يعرفني فداريت وجهي بغطاء الرأس، ركبت قطاراً من محطة البندر ونزلت "مصر" بعد الضحى العالي، ركبت تراماً مثلما كنت أفعل معه ومشيت مشواراً طال وأنا أمني نفسي أن أصل إلى العش المأمون أو ما كنت أحسبه عشّي المأمون، طلعت سلم الحوش ولم أشغل نفسي بساكناته من النسوة الجالسات والناظرات في استطلاع يتغامزن عني، طرقت الباب الذي كان معفراً وخيوط العنكبوت منسوجة أعلاه وفي الأركان، طالت وقفتي وخفت أن يكون قد ترك السكن، ليتني سألت الجالسات حتى أحمي نفسي من لومهن لطلوعي دون سؤال أو اهتمام، لكن الباب انفتح، كان في عينيه نوم وكسل، تأملني بعد أن دعك عينيه واندهش، اتسعت حدقتاه تكذيبا ممزوجاً بالفرح، أزحته فانزاح موسعاً لأدخل، سكّ الباب المفتوح وقالها :

– أهلاً ..

وجلس، كان ينظر إلى خشب الأرضية الذي اتسخ ساكتا وكأنه أصيب بالخرس، كنت في حال يصعب على العدو قبل الحبيب، مهدودة والعرق يملأ جبيني وأحسه يسري فوق سلسلة ظهري وتمتصه الثياب، لكن نسمة الهواء تلسع الوجه وسلسلة ظهري، كنت أتوقع أن يلقاني بمزيد من الترحاب ويترك لنفسه حرّية الفَرح. لكنه لم يفعل، هل كانت دموعي تتساقط رغماً عني لأنني جئت ولم يتلهف علي رؤية الولد ؟، غيره كان يقوم ويكشف الغطاء عن وجهه، يجفف دموعي ويهنئني بسلامة الوصول، يسألني كيف جئت رغم اعتراضاتهم هربانة أنتظر كلمة ود لكنه سكت، كأنني غريبة عنه مع الولد، ضناه، يراه لأول مرَّة ولا ينشغل، لو كان بيني وبينه مطارق الحداد

فما ذنب الولد ؟ الناس في الكفر تغضب وتتصالح، والمطلَّقة يردها الرجل إلى عصمته إن خلَّفت ولداً .. شعرت بالندم لأنني لجأت إليه، تشككت في إمكانية أن تعود المياه إلى مجاريها بيسر، قلت أغصب على روحي وأحاول تحريك السكون الذي بدا لي غريباً :

– مش عاوز تشوف الولد ؟

– عاوز .

قالها ثم قام، رفع الغطاء الرقيق الأزرق عن وجهه "المزرود"، بص فيه ثم أعاد الغطاء، نظر إلى بعيد قبل أن يسأل :

– عاوزاني أعمل إيه ؟

كنت أغلي وأحاول تهدئة نفسي :

– إبنك تربيه .

– إزاي ؟

قال هو وقد قام من جلسته القلقة ودار حول نفسه بغير هدف كان وجهه شاحباً ومخطوفاً وغير حليق، أصابعه تتشابك بعنف وتنفك بعنف وفي عينيه حيرة، كأنه سقط في بئر، يطل من خلال النافذة نصف المفتوحة التي تسمح لخيط نحيل من شعاع الشمس بالدخول، يتحاشاني ويطلُّ خلسة وكأنه لص يخشى أن يضبطه المسروق متلبساً، لعلني شعرت نحوه بعطف وأردت أن أساعده :

– نرجع لبعض عشان الولد ياحسن .

قلتها ولم أتمالك نفسي، جعلت أبكي وأبكي بحرقة ومرارة لأنني كشفت ضعفي أكثر مما كنت أعتقد، لم يحاول تهدئتي ولو بكلمة، هل كان كل الكلام في السابق كذباً ؟ هل لاف على غيري واستغنى ؟ كدت أن أهدأ فسمعت صوته :

– ياريت العياط بيحل، علَّام كتب كتابه عليكي ياشوق ؟

فزعت لأنه عرف ما جري في الكفر، أبلغه أولاد الحلال إذن لتكتمل القطيعة وينقطع كل رجاء في الرجوع، قلت من بين دموعي :

– ما لكش دعوة بعلَّام، علَّام في إيدنا وخلوصي منه سهل ..

– تبقى انتي على نياتك وما تعرفيش علَّام، ما تروحيش بعيد واسألي أمك عليه ..

– يعني إيه ؟

– يعني العوض على الله .. خمس أيام من يوم ما وصلني الخبر الأغبر وأنا لا أكل ولا شرب ولاشغل .. العوض على الله .

– أقف جنبي وخلَّصني .

– ما لكيش خلوص منه غير بضرب النار، أضيع نفسي عشان واحده زيك ؟

طيَّر البرج الباقي من عقلي كأنه يعايرني ويكيدني لأنني استجبت لهم في لحظة ضعف، كان من الممكن أن أقول له كل ما بلغني عنه وأنا هناك، لكنني شعرت بالعجز عن الاستمرار معه في حوار بلا لزوم، كنت أحسبه

إبن ناس يشتريني ولا يتشفَّى، يتخلى عني وهو العارف أنهم كانوا سبب الخراب، والذي لا يعرفه أنني ما جئت إلا من أجل الولد، وضعت الولد على طرف السرير وأمسكته من طوق جلبابه بغلّ المشوار وما سوف ألقاه في الكفر من سخريات، لم تبرد ناري وقد بدا لي أنني بعته أكثر مما باعني، كنت أرجَّه رجاً فيبدوا لي أنه يوشك أن يسقط من طوله، جاءتني قوة لا أعرف مصدرها أدهشته وأربكته وجعلته يعافر بعسر ليخلص طوق جلبابه من قبضتيّ المستميتتين وفي عينيه مخاوف رجل من امرأة عاشرها وحسب قوتها فخابت حساباته، كان يجاهد أن يداري خوفه لكنه فشل، ليس الأمر مجرد أكتاف عريضة أو شوارب مفتولة، سقط من عيني عندما تأكدت من خوفه، تركته يتحسس عنقه وصدره ويلهث، فتحت بابه وخرجت منتصرة رغم الجرح في القلب، لم يسع في أعقابي ولم أفكر في الرجوع لأخذ الولد "ياروح ما بعدك روح" شعرت بالبرد وأنا أسعى لا أدري في أي اتجاه وصهد بؤونة يترك على الرأس سخونة والأطراف ترتعش، كنت شاردة ومهمومة "عقل غشيم عاجز عن التمييز وقلب أعمى، الرجل الرجل يخسر الدنيا ولا يخسر ضناه"، كرهت نفسي وكرهت أولاد عوف وأولاد شلبي، لو كان لي أخ، كان في القلب غم وفي الصدر وجع وخطواتي تسعى بعسر مكرهة في طريقها إلى كفر عسكر .

دخلت الكفر بليل سترني الظلام وغطَّاني الملس، فتحت هي الباب فقرَّبت وجهها من وجهي وكأنها تتحقق من ضيف غريب، سألتني بهلع :

– الولد راح فين ؟

– عند أبوه .

قلت وأنا أخطو ناحية السلم لأصعد إلى "المقعد" البحري، توقعت منها هبدة براحتيها المفرودتين فوق ظهري كما كان يحدث عندما تغتاظ من واحدة منا فتكفيها على وجهها لكنها لم تفعل، لعلني كنت أتمنى أن تفعل لأفيق من كفّ الزمان المعاند، لو فعلت لأراحتني من وجع يفوق طاقتي على احتمال المهانة والانكسار، سمعت صوتها من تحت السلم تندب :

– قلت لك ماتسمعيش كلامها، قلت لك ماتسمعيش كلامها، رايحة له تسخَّمي إيه ؟ وفايته الولد عنده يعمل إيه ؟.

داست بكلامها على قلب الجرح أو جرح القلب، وما كنت أملك غير الإنخراط في بكاء حبسته طول السكة من حوش المغربلين حتى دارنا في الكفر، انهدّت قواي ولم أشعر بنفسي إلا وشعاع الشمس يلسعني وهي تقف بالمقلوب طيفاً نحيلاً عاجزاً والصندوق بجوارها مقلوباً أو كأن رأسي هو المقلوب، انسك الشباك بيدها فغربت شمس النهار وساد صمت لابد أنها هي التي سقتني كوز الماء فما كنت أقدر على حمله وهو إلى جوار الفراش مقلوباً أو مائلاً، لعلها حاولت أن تطعمني فلم تستطع، لعلني تذكرت عطيّات، تلك التي حرموها من دخول المدرسة أو رؤية الناظر لابس طربوش النسر، وربما كنت قد قرَّرت أن أفعل مثلما فعلت، تذكَّرت نعمات وتمنيت لو أنها كانت إلى جواري وتذكَّرت الولد، لو كان معي يؤنسني لاحتملت، أرضعه وأنظفه وأناغيه، أبثّه همومي، واستفتيه، تداخلت كل الوجوه التي راحت في وجه الولد، شعرت بوخزة الجوع في البطن فقلت لنفسي جاع الولد، كان لبنه المحبوس ينز من الحلمتين ويبلل صدر الجلباب، جفَّت منه قطرات فتحولت إلى رقائق خشنة مستديرة تصلّب النسيج وتزوّد

الوجع، لعلني قمت وارتكزت أو حلمت أنني قمت وارتكزت واخرجتها وعصَّرتها على الأرض وما نقص الوجع ولا سكن الصدر، كنت أشتعل من الداخل والخارج .. الجوف والصدر والدماغ والحلق والعينين ورغبتي في الموت تدعوني للاحتمال .

***

بكري أو علام وكان على أن أختار، قلت لها ياعمّة انتظري حتى ينزل ما في بطني وأكمل العدَّة، كنت بين نارين، أن أوافق أو أن أبقى وسيرتي لبانة في كل الأفواه، يسهرون الليل وينهشون لحمي الحي، وكل ليلة كلام ومجلس من رجال بشوارب يتحمسون ويهددون ونسوة بارعات في مصمصة الشفاه شماتة وتأسَّيا مصنوعاً على النصيب الذي مال والأب الذيي خاب واستدان من الكبار والصغار، سلَّم ذقنه كما قالت أمي- في لحظة جرأة نادرًا ما تنتابها- للعمَّة، أخته غير الشقيقة لأب، كأنه كان في الخفاء بينهما سباق انتهى لصالحها، ولأنه كان دائماً يضيّع كل ما تطوله كفَّاه في مجالس الشرب والقمار، استسلم لسلطان قرشها، لعله ذات مساء تأكّد أنه خسر رهان العمر معها فاستكان وارتضى لنفسه أن يعيش ظلاً لرجل كان، ولعلني لم أخطىء كثيراً عندما تعلَّقت بها إلى أبعد الحدود، ربما لأنها في كل الحالات، تسيّر حياته بحسب إرادتها وأفكارها، ولعلها أيضاً كانت بديلاً عن الأم الساكتة دوماً، تتلقى الأوامر وتنفذها برضاها أو غصبا عنها ونادراً ما كانت تنشغل بتعليم واحدة منا عملاً من أعمال الدار، كانت هناك دائماً وربما قبل أن نوجد إرادة العمَّة ورأى العمَّة وفكرة العمَّة، أحسبني لم أراجع حساباتي في رأي قالته إلا

عندما أشارت عليّ بأن أختار علَّام، كنت أميل إلى رأي أمي الذي تمسَّكت به وعاندت على غير عادتها، لعلني لم أكن أفكر في دخول تجربة جديدة مع رجل جديد ومازالت في أحشائي نطفة كيان لم يولد من صلب رجل عاشرته، واختلفت معه، غضبت كما تغضب الكثيرات وتنتظر صلحاً يعيد المياه إلى مجاريها، وفي الكفر يقولون "الولد يردَّ أمَّه" ولعله يكون ولداً قادراً على رد الأمور إلى مجاريها، هكذا كنت أفكر، لكن العمَّة جاءت وعارضتني :

– الواحده إن مال بختها في المدن تعيش، تنتقل في سكن غير السكن، تخرج من حاره وتدخل حاره، والناس هناك كتار وكل حي فيهم مشغول بحاله، إنما هنا في الكفر لأ .. الكفر ضيق وعقول ناسه أضيق .

– نستني شويه يا عمَّه .

– لأ .. مانستناش، مادام ماجاش يصالح منستناش .

– ياعمَّه ..

– وعلَّام ما يتعيبش بابنت، بكره يكتب لك اللي وراه واللي قدامه .. سيبك من بكري ..

– أنا عارفه بقى ..

كأنني وافقت، وكأنهم حسبوا الأيام، بعد ميلاد الولد جاءوا رجال بشوارب ونسوة بفساتين ملونة وصبية وبنات صغيرات ترقص على دقات طبل في يد الناعسة، وكفوف تصفق، ومأذون بدفتر وزغاريد وعقدوا القران وأنا غفلانة وأمي تلطم في قاعة الخزين بلا حيلة، وبثوب البيت أراد أن

يأخذني علَّام "وخير البر عاجله" فأقع في عرض العمَّة في قاعة الخزين كي تتوسط لتأجيل الدخول، مجرد تأجيل الدخول .

***

أغراني وجهه البسَّام وجرأة في العينين تقتحمان الوجوه والأشياء باطمئنان إلى قدرته على تصريف الأمور، وكنت قد سمعت عنه الكثير، عراكه مع الأب الذي لم تنكسر شوكته أبدًا، وخروجه إلى تلك المدن البعيدة مع أخ شقيق مات وبقى هو، يرفض الرجوع ويظل مبتوراً عن الأهل ومستغنياً عن الميراث، وماذا تطلب الواحدة منا أكثر من رجل قادر أن يحوطها ويحميها ويفرّجها على الدنيا الواسعة ؟ يحنو عليها ويبعث في قلبها البهجة، ينسيها شقاء الأيام ويسمح لأحلامها بأن تتفجَّر، تسلم نفسها إليه وتطمئن إلى وعد صادق النبرات قاله بعد عقد القران، ورغم أنهم حاولوا جميعاً أن تموت الفرحة في قلبه كان يبدو فرحاناً ومنتصراً، قلة من أولاد عوف وأولاد شلبي جاءوا على عكس كل ما كنت أنتظر، وسألت نفسي إن كانوا قد استعادوا في تلك الليلة عداواتهم القديمة أو أنه كان عدواً لأهله وخارجاً عن طاعتهم لمجرد أنه فكر في أخذى وترك بنت عمه أم الولد ؟ وكان أبي الباحث عن صلح أبديّ معهم على عكس إرادة الكبار من أهله هو الآخر خصماً يستحق المقاطعة كما قالت العمَّة، تلك التي كانت لا تعترض أيام كانت تراه يمر من الدرب ويطلّ فتسألني دون اعتراض عن سر عبوره في كل اجازة ينزل فيها الكفر وما كان يتعرض له من سخافات بكري وغيره من شباب الدَّرب الذين عاشوا زمن العداوات القديمة وفسَّروا عبوره من دربنا على أنه "دهوسة" عليهم، كانت العمَّة تبدو راضية عن مشاغلاته لي من بعيد، ربما

لأنها وجدتني لا أعترض، وربما لأنها لم تتصور أن الأمر سوف يصل إلى حد أن يطلبني للزواج، لكنه عندما فعل اعترضت وهدَّدت بأن تتخلى عن وعدها القديم بتجهيزي من حرّ مالها، لكن أبي لم يتراجع، استدان وجهَّزني بحسب قدراته، ورضى هو رغم تحريضات أهله ليطلب المزيد، تبسَّط وقال إنه اشتراني فاطمأن إليه قلبي، رتَّبت أمري لكي أرضيه، أن أبعث في قلبه الأمان وانسيه مرارة الترحال في المدن البعيدة سعيا وراء اللقمة كما كان يقول لي بعد عقد القران وقبل الرحيل إلى تلك المدينة البعيدة التي سمعت عنها ومارأيتها، كان يمنيني وأمنيه بخلفة من صلبه قادرة على تذويب الكراهية المدفونة في قلوب الخلق في دربنا ودربهم، كان يحدّثني عن مدينة براح يتوه الناس فيها، وترام وأسواق لا تنفض ونساء بملاءات وبراقع وأفندية بطرابيش وعساكر سلطة تفض مظاهرات تهتف للوفد وتطلب الجلاء، وملك يتخفَّى في قصر محروس من غضب الشعب، وحكومات لا يرضى عنها الخلق، كنت أشعر بالفرح يملؤني وأتعجَّل بيني وبين نفسي رحلة الطلوع .

أذكر أنه جاء محاطا برجال من دربهم وأفندية غرباء بطرابيش، أذكر أنني ركبت العربة المخصوص وأنني تركت الكفر ورائي ودخلت وأنا إلى جواره شوارع المدينة، مشتاقة للسؤال وخجلانة حتى نزلنا عند الباب المفتوح، حوش واسع وسلم على جنب طلعنا عليه ونسوة تختلف عن نساء الكفر تزغرد وترشّ الملح حتى دخلنا مسكنه، حجرتان موصولتان بباب وطرقة وباب ينسك علينا وتصفيق وغناء وهو واقف أمامي بجلبابه المكوي وطربوشه يبتسم، وكرباج سوداني معلق جنب عامود السرير، هل خوَّفني

وهو يطلب مني أن أغير ثيابي في حضوره ؟ أو أنني كنت جاهزة للخوف وعيناي على طرف الكرباج، هل كان يضاحكني وهو يتناوله ويطوح به في الفراغ مهدداً إن لم أطاوع فسوف يشويني أو أنه كان يعني ما يقول ؟ كنت خائفة وخجلانة ومستعدة للعناد، هل طالني طرف كرباجه فعلاً أو أنني ادعيت ذلك وبكيت فحاول أن يطمئني فلم أطمئن ؟ وكم ليلة تصابر فيها على نفسه قبل أن يضرب بجد ؟ وهل نفذ وعيده ونالني غصباً أو أنني أسلمت إليه روحي برغبتي ؟ تتوه مني الحقيقة ويبقى ذلك الخوف الذي ترسَّب في قلبي من ناحيته، خوف خجلان متحفز لثأر لابد أن آخذه وقد فعلت ذات مساء وهو ينظر إلى طرف الكرباج الذي كان في متناول يدي فأخذته ونزلت به على جسده وقد خلع الجلباب، كان يضحك ويتأوه من أثر الضربات أو المفاجأة حتى خلَّصه من يدي ورماه بعيداً واتهمني بالجنون، ليلتها حذَّرته من معاودة تلك المحاولة التي كانت فأكد لي أنه لن يحاول، لكنني لم أطمئن إلا بعد أن ألقيت بالكرباج من النافذة إلى الشارع وسيطر الصمت .

كان يفرّجني على الميادين البراح والنيل العريض ودكاكين التجار والعمائر العالية الفسيحة والأهرامات، وكنت مازلت أخافه وإن ملت إلى رغبة الاطمئنان له، وكان يحدثني عن شريك له في الدكان لا رأيته ولا جاء يناديه من تحت كما يفعل الآخرون، يناولني مكسب الدكان ويطلب مني أن أوفّر النصف بما يرضي الله لذلك الشريك الغائب وأفعل، وعندما أفاتحه في حكاية إسماعيل يتحدث عنه بحزن لا أعرف سره، يسألني عن نصيبه وإن كانت تمتد إليه يدي، فأطمئنه، أحياناً يطلب ما وفّرته ويحصيه ويطلب مني أن احتفظ به مكانه لحين تسليمه إلى صاحبه فأعجب، وعندما جاء أبي في زيارته

الثانية وسألني عن الأحوال طمأنته، سألني عن المال فانفلت لساني وتباهيت بما وفَّرناه فكَّذبني، اندفعت وأخرجت المال المحفوظ من ركن الدولاب، وسمعت على الباب طرقاته المميزة، ودخل، سلم واستفسر بالعينين عن تلك الجنيهات المحطوطة أمام أبي، لامتني عيناه وأنا أحدثه عن رغبتي في طمأنة الأب على حالي، هل أفلح أبي في توريطه للموافقة على أخذ سلفة يحتاجها إلى أجل قريب أو أنه لم يمانع رغم نظرة مني كادت أن تحذره من ذلك الوعد بالسداد الذي لا أضمنه ؟ وهل كان في مقدوري أن أشكك في ذمة أبي في حضوره أو حتى غيابه ؟ وكيف تحوَّلت زيارة الأب بعد رحيله إلى عاصفة كنست ما كان بيننا من ود ورغبة في التآلف ؟ كان يلومني وأتحامل، يعذبني لأنني بحت بسرَّه ولا يحاسب نفسه لأنه استسلم في لحظة خجل وسلم ذقنه بإرادته، والخجل في الرجال يورث الفقر كما قال هو نفسه مرات، كنا نرقد على نفس الفراش ولا نتكلم، أضع بيني وبينه وسادة بطول السرير حتى لا أنسى في لحظة الغفلة خصامي أو ينساه، وزادت النار بعد زيارة أبيه ولم تنطفىء، همس له ببضع كلمات فزفر في يأس ولم يعد ينظر ناحيتي أو يوجه إليّ كلمة مجرد كلمة، وعندما جاءت أمه وشافت أحوالنا كلمته وأوصته بأن يغفر لي فمازلت صغيرة لا أدرك لكنه لم يفعل، ظل على حاله عندما يدخل أو يخرج فاسودت الدنيا أمامي زمنا، قلت أطلب منه أن يوصلني إلى الكفر لأطلب من أبي رد ما أخذه فلم يعترض، أوصلني إلى باب الدار ولم يدخل، وكان آخر ما قاله لي متوقعاً فشلي في تحقيق غرضي :

– ابقي قابليني .

لكنني لم أقابله، عقدوا في المندرة مجالس وقالوا كلاماً، وسعى الخلق ينقلون إلينا أخباره وأقواله ونواياه، أمروني بالبقاء حتى يأتي ويأخذني من دار أبي مثل كل الخلق في كفرنا الذي يرعي الأصول ويصونها، لكنه خيَّب كل رجاء فيه وغاب، وطال الغياب لا حس ولا خبر، وبدا لي أن كل ما كنت أسمعه عن غدر الزمان ينطبق على حالي، فلا الرجل الذي جعلته سندي وملجأي جاء ليعرف أخباري أو يعيدني إليه، ولا الأب الذي أفسد علاقتنا بثمن بخس فكَّر أو انشغل بحالي، ولا العمَّة ساعدتني برأي صائب، وكانت أمه تأتيني، تطمئنني وتمنيني وتبعث في قلبي الرجاء بأنه لابد سوف يجيء وإن طالت غيبته والغائب حجَّته معه، أفتح لها قلبي "وأفضفض" وأحلم معها وأنا أتحسس بطني، بنت أم ولد، ولد، ولد قادر على كنس فساد الدنيا من حولي، ولد أرعاه وأحميه، ولد يخلّصني من عواصف الأيام المعاندة، أمنحه الدفء ويمنحني القدرة .

تفوت الأيام وتنقضي الأمسيات وأنا أرقب حركته في البطن، إذا تحرك حلمت بالولد، ولد/ ابن/ أخ/ أب/ زوج/ عم/ خال/ ولد، وإذا سكن ساعة أخاف أن يضيع الحلم أو يختنق، أسأل نفسي إن كان ميعاد مولده قد فات، أو أن يكون قد رفض الزمان والمكان والناس من حولي واعترض، أدعوه دون صوت بكل خلايا نفسي أن يأتي ليقيلني من كل العثرات التي تصادفني، استشعره يصحو من نعاسه بوهن ثم يتمطى بكسل قبل أن يتحرك حركة هيّنة ويزغدني بكل قوته مؤكداً صحوه في داخلي وباعثاً في القلب المهموم تباشير أمل .

***